13 me Année No. 645

Lundi—12—11—1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٦٤٥ « القاهرة فى يوم الإثنين ٧ ذو الحجة سنة ١٣٦٤ — ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

الفـــــن عام

نعم . ولكن بأى معنى ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

(سير كنيث ماكنزى كلارك) هو فى الوقت الحاضر أكبر النقاد فى فن التصوير بالبلاد الانجليزية .

وقد تولى إدارة المتاحف الوطنية الكبرى عدة سنوات وهو لم يتجاوز الثلاثين ، وبلغ هذه المنزلة الرفيعة فى عالم الفن ولما يتجاوز اليوم الثالثة والأربعين .

كتب هذا النقادة العالمى فى إحدى الصحف اللندنية بحثاً يدل عنوانه على فحواه وهو « أن الفن ليس لكل إنسان » .

ولا نطيل فى تلخيص آرائه لأننا قد نستغنى عن الإطالة فى تلخيصها بمثلين اثنين من أمثاله المتكررة فيهما الكفاية فيما أراد البيان عنه .

أحدهما أن المتحف الوطنى اشترى سنة ١٨٤٠ صورة لفان ايك بثلثمائة وثلاثين جنيها انجليزياً واشترى معها صورة لجيدو بألف وستمائة جنيه ... والآن تقدر الأولى بثلثمائة ألف جنيه لو سمح ببيعها ، ولا تزيد قيمة الأخرى على الثلاثين .

أما المثل الثانى فهو نتيجة استفتاء لهواة الصور فى مجموعة من القطع الفنية الخالدة ومعها بعض القطع التى لا تعلو على طبقة الصور المعدة للاعلان وترويج البضائع .

بيع من هذه المجموعة ثمانون ألف نسخة ، وكان أربعة أخماس الصور المعروضة فيها من آيات الفن الكبرى ، وما بقى من المجموعة أخلاط وأوشاب .

والذين سئلوا عن رأيهم فى أبدع هذه الصور جميعاً هم بطبيعة الحال هواة الفن الذين يسهل على أحدهم بذل الثمن الغالى فى كتب التصوير .

ومع هذه أحصيت الأجوبة فإذا بالصور الست المفضلة كلها من غير الآيات الفنية الكبرى ، مع أنها تبلغ أربعة الأخماس من صور المجموعة وليست هى بالقلة التائهة بين زحام تضل فيه الأذواق والآراء .

ونعتقد أن المثلين يتكرران فى كل بيئة وفى كل فن من الفنون الجميلة ، وأن النتيجة لا تختلف عن هذه النتيجة كبير اختلاف .

وإنما يلفت النظر فى المثلين أن الغلطة فى المثل الأول غلطة نقاد مختصين بالتقويم والتقدير فى المتاحف العالمية المعدودة ، وأن الغلطة فى المثل الثانى غلطة جمهور غفير ولكنه هو جمهور الفن على كل حال .

فما الذى يفهم من هذين المثلين ؟

لا يفهم منهما أن ذوق الفن حظ شائع بين سواد الناس ، ولا أنه ذوق خاص بالعلية فى عصر واحد .

فكيف يقال إذاً إن « الفن عام » وإنه تراث عالمي أو تراث إنساني يقاس بمقياس الإنسانية جمعاء ؟ .

إنما يقال هذا بمعنى واحد لا معنى سواه .

وهو أن الفن « عام » بمعنى أنه للخاصة في جميع الأزمان وليس للخاصة في زمن واحد أو بيئة واحدة .

فإذا كان كذلك كان « إنسانياً » وكان عاماً بهذا المعنى دون غيره ، لأن اتفاق الخاصة على استحسانه في كل زمن هو الدليل على أنه قائم على المزايا الإنسانية التي تنال بالفطرة المهذبة ، ولا ترجع إلى الأسباب الموقوتة التي ترفع إلى منزلة الخاصة أحياناً في بعض العصور من لا يستحقون التمييز والترجيح .

فإذا كان العمل الفني يروق الخاصة في بعض العصور ولا يروق الخواص في العصور الأخرى فذلك هو الدليل القاطع على أنه لا يروقهم لمزية إنسانية باقية ، ولكنه يروقهم لسبب من سببين عارضين : أحدهما أن نزوة من النزوات التي تطغى على العقول والأذواق في بعض الأحوال قد طغت على أولئك الخاصة فأضلتهم عن سواء السبيل ، والآخر أنها خاصة مزيفة قد صعدت إلى مكان العلية والسراة لعيب من عيوب المجتمع الذي برزت فيه .

فمن قال إن « الفن عام » لا يصح أن يعني بكلامه هذا أنه خلق للعامة وكل من يعقل أو لا يعقل على السواء ، وإنما يستقيم كلامه على وجه واحد وهو أن الفن الرفيع إنساني لأنه يعجب الممتازين من بني الإنسان في جميع العصور .

ونحن نقول العامة والخاصة في مسائل الفن والأدب ، ونقصد بهما العامة والخاصة في الأذواق والأخلاق والملكات ، ولا نقصد بهما عامة العرف الاجتماعي أو خاصة الأوضاع والتقاليد .

فالغني قد يكون من أحقر العامة في أذواقه وأخلاقه وملكاته ، والفقير قد يكون من أرفع الخاصة في تلك المزايا الإنسانية العليا ، وقد يكون هو مبدع الآيات النوالي في الأدب والتصوير والموسيقى والتمثيل كما حدث ويحدث إلى آخر الزمان .

بل نحن نرى أن العامية أوسع نطاقاً من فوارق الغنى والفقر والذكاء والغباء .

فقد يكون الرجل خاصة في الهندسة وعامة في الشعر والكتابة ، وقد يكون خاصة في الأدب وعامة في الموسيقى والتصوير ، وقد يكون خاصة في فقه اللغة وعامة في أذواق الفنون ، وقد يكون خاصة في الخلق والإنتاج وعامة في النقد والشرح والتفسير .

لأن الإنسان الذي يرتقي إلى مرتبة الخاصة في جميع المحاسن الإنسانية غير موجود ولا يتأتى له وجود .

والمقصود على هذا بخواص الفنون والآداب هم أولئك الذين يحسنون فهمها ويملكون وسائلها وموازين الترجيح فيها .

وعلى هذا الاعتبار يصح أن يقال كما قال أناتول فرانس إن الجمال الفني سهل وإنه على قدر سهولته يكون نصيبه من الجمال .

فأسهل الفنون هو أجمل الفنون .

ولكن ينبغي قبل ذلك أن تسأل : سهل هو على أي الناس ؟

فلو كان المقصود أن يكون سهلا على جميع الناس لخرج من الفنون العليا فن المتنبي وأبي العلاء وابن الرومي والبحتري وهومر وجيتي وشكسبير ، وارتقى إلى ذروة هذه الفنون كل نظام من سوقة الجماهير يطربهم بالأزجال والمواويل .

ولكن المقصود بالسهولة هم أولئك الذين استعدوا بفطرتهم وتهذيبهم لفهم الجمال الرفيع في آيات مبدعيه والمعبرين عنه من الشعراء والأدباء والفنانين .

وعلى هذا المعنى أيضاً يقال إن « الفن عام » لأنه يعم كل من تهيأ له بفطرته وتهذيبه ، وكلاهما من صفات بني الإنسان ، وليسا من الصفات المستعارة للآدميين من خارج الحياة الآدمية .

والأمر بعدُ أوضح من أن يحتاج إلى عناء في إثباته وتمييز صوابه من خطئه .

لأن الحقيقة التي لا مراء فيها أن الأذكياء أكثر من الأغبياء ، وأن أصحاب الأذواق أكثر من المحرومين منها ، وأن دقائق البلاغة وأسرار الجمال أخفى من البلاغة الشائعة والجمال المبذول ، وأن الإنسان بالفطرة والتعليم معاً أرجح من الإنسان بالتعليم وحده أو بالفطرة وحدها .

ومع ثبوت هذه الحقيقة واستغنائها عن اللجاجة في إقامة البرهان على صحتها لا تكون الدعوة إلى تجريد الفنون من الخاص والعام، ومن الرفيع والوضيع، إلا مسخاً للمزايا وهبوطاً للصاعدين وتسوية بين الذي هو أدنى والذي هو خير .

في إرشاد الأريب
إلى معرفة الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ١٦ —

ج ٢ ص ٢٢٧ : أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخصيب كان بليغاً مترسلا شاعراً أديباً متقدماً في صناعة البلاغة ، وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات عجيبة . وهو القائل :

خير الكلام قليلٌ على كثير دليلُ
والعيُّ معنى قصيرٌ يحويه لفظ طويل
وللبليغ فصولُ وللعييِّ فضولُ

قلت :

خير الكلام قليلُ على كثير دليلُ
وللبليغ فصولُ وللعيي فضولُ

فالبيت الأول مقفى ، والبيت الثالث مصرع ، وليس البيتان بمصمتين(١)

(١) التاج : واستدرك شيخنا البيت المصمت وهو الذي ليس بمقفى ولا مصرع بأن لا يتحد عروضه وضربه في الزنة أي في حرف الروى ولواحقه كما حققه العروضيون .

ج ١٨ ص ٢٣٨ : ابن التعاويذي :

وعلام أشكو والعهود نقضنها بلحاظهن إذا لوين ديوني
هيهات ما للغيد في حب امرىء أرب وقد أربى على الخمسين
ومن البلية أن تكون مطالبي جدوى بخيل أو وفاء خؤون
ليت الضنين على المحب بوصله ألف السماحة عن صلاح الدين

قلت : (وعلام أشكو والدماء مطاحة بلحاظهن) كما رُوى في (الوفيات) في سيرة بطل المسلمين صلاح الدين . وقد يكون الأصل (والدماء مفاحة) وأفاح دمه هراقه كما في (اللسان) . وتخلص ابن التعاويذي هو من التخلصات المنكرة وإن لم يبلغ في القبح ما بلغه قول شاعرنا المتنبي :

على الأمير يرى ذلي فيشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلا(١)

قال ابن الأثير — وقد روى البيت في كتابه (المثل السائر) : والأضراب عن مثل هذا التخلص خير من ذكره ، وما ألقاه

(١) من روى فيشفع بالرفع عطفه على قوله يرى ومن نصبه جعله جواباً للتمني كقراءة حفص عن عاصم «لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع» بالنصب (العكبرى) .

ولم تر قوياً وهب له الله الصحة يتمارض لأن في الخلق مرضى وضعفاء .

ولم تر ذكياً رفيع الذهن يحرم على نفسه الارتفاع إلى ذراه لأن في الخلق أغبياء لا يطاولونه إذا ارتفع ذلك الارتفاع .

ولم تر صحيحاً موفور الاشتهاء للمآكل يأكل أكل الممعودين ، لأن الممعودين لا يهضمون كل ما يهضم من الطعام .

فلماذا تحرم على النوابغ والموهوبين أن يفكروا في شيء لا يقوى على التفكير فيه من حرموا النبوغ وهبات الخلق والابتكار ؟

ألأن الطعام أرفع وأكل من الذوق والفكر والشعور ؟ ألأن الارتفاع والامتياز حرام والشيء الوحيد المباح هو الانحدار والتساوي بين نزلاء الحضيض ؟

ليقل ذلك من ينفعه أن ينحدر الصاعدون ، وأن تخلو الدنيا من التفوق والرجحان .

وإذا قالوه فلا سبيل لهم إلى تحقيقه إلا بقوة الحيوان دون قوة الإنسان .

أما الإنسان فهو لا يقول هذا ولا يستريح إلى سماعه ، ولا يأبى أن يكون الفن عاماً لا يستأثر به أناس دون أناس بغير الحق والاستعداد ، ولكنه يأبى أن يعم ليسقط فيه الرفيع إلى منزلة الوضيع ، لأن زواله خير من بقائه على هذه الحال .

عباس محمود العقاد

في هذه الهوة إلا أبو نؤاس فإنه قال :

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد
هواك لعل الفضل يجمع بيننا

وفي (معاهد التنصيص) هذا الخبر :

حدثت رابعة البرمكية قالت : كنت يوماً وأنا وصيفة على رأس مولاي الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وبيدي مذبة أذب بها عنه ، إذ استؤذن لمسلم بن الوليد الأنصاري ، فأذن له ، فلما دخل عليه أعظمه وأكرمه واستنشده ، ثم خلع عليه وأجازه وانصرف ، فما قلت إنه جاز الستر حتى استؤذن لأبي نؤاس ، فامتنع من الإذن له حتى سأله بعض من كان في المجلس أن يأذن له ففعل على تكره منه ، فلما دخل سلم عليه ، فما علمت أنه رد عليه ولا أمره بالجلوس ولا رفع إليه رأسه ، فلما طال عليه الوقوف قال : معي أبيات أفأنشدها ؟ قال : افعل ، وهو في غاية التكره والثقل ، فأنشده إياها ، فلما بلغ إلى قوله (سأشكو البيت) قطب وجهه ، وقال : أمسك ، عليك لعنة الله ! اغرب ، قبحك الله ! وأمر بإخراجه محروماً فأخرج ، والتفت الفضل إلى أنس بن أبي شيخ وقال : ما رأيت مثل هـذا الرجل ولا أقل تمييزاً في كلامه منه .

فقال أنس : إن اسمه كبير !

فقال : عند من ويلك ؟ هل هو إلا عند سُقّاط مثله وخلق يشاكلونه . . . ؟

***

ج ١٨ ص ١٥٦ : وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فُرُطاته — وأنا ابن تسع عشرة سنة .

وجاء في الشرح : الفرط : الظلم والاعتداء .

قلت : لا يقصد القائل — وهو الحاتمي اللغوي — بهذا الدعاء الظلم والاعتداء . في الأساس : وتقول : اللهم اغفر فَرَطاتي ، ولا تؤاخذني بسقطاتي . وفيه : ولا يخلو أحد من سقطة ، وفلان يتتبع السَّقَطات ويعد الفَرَطات ، والكامل من عدت سقطاته .

وقد روى التاج هذا القول وقال : السقطة : العثرة والزلة .

***

ج ٦ ص ٣١٤ : قال (الصاحب بن عباد) : ما أفظعني إلا شاب ورد علينا إلى أصبهان بغدادي ، فقصدني فأذنت له ، وكان عليه مرقعة وفي رجليه نعل طاقٌ ، فنظرت إلى حاجبي ، فقال له وهو يصعد إلي : اخلع نعلك ، فقال : ولم ؟ ولعلي أحتاج إليها بعد ساعة ، فغلبني الضحك ، وقلت : أتراه يريد أن يصفعني ..؟

وجاء في الشرح : يقال: أفظعه الأمر: اشتدت شناعته ، وجاوز قدره ، وأفظعه الأمر وجده فظيعاً . يقال : نعل طاق عطف بعضه على بعض ، وربما قيل طاق نعل ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

قلت : (ما أقطعني) (وفي رجليه نعل مطرقة أو مطارقة) (أُتُراه يريد) .

في التاج : ومن المجاز : قطع خصمه بالحجة . وفي الأساس : بالمحاجة غلبه وبكته كأقطعه .

وفي الأساس : ونعل مُطَرَّقة ومطارقة : مخصوفة وكل خصفة طراق . وفي النهاية : طارق النعل إذا صيرها طاقاً فوق طاق وركب بعضها فوق بعض . وفي حديث عمر : فلبست خفين مطارقين أي مطبقين واحداً فوق الآخر . وروى بعضهم المطَرّقة بتشديد الراء للتكثير ، والأول أشهر .

***

ج ١ ص ١٥٧ : الرجوع إلى الحق خير من التمادي على الباطل .

قلت : (خير من التمادي في الباطل) في الأساس : وتمادى في الأمر : تمادّ فيه إلى الغاية . وفي اللسان : تمادى فلان في غيه إذا لج فيه وأطال مدى غيه أي غايته . وفي (الكشاف) في تفسير (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

فإن قلت : لم اختص بالذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ؟

قلت : اختصاصهما بالذكر كشف عن إفراطهم في الخبث وتماديهم في الدعارة لأن القوم كانوا يهوداً ، وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان ، وكذلك إيمانهم باليوم الآخر لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته ، فكان قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر خبثاً مضاعفاً ، وكفراً موجهاً (١) لأن قولهم هـذا لو صدر عنهم لا على وجه النفاق ،

(١) أي ذو وجهين كل كفر له وجه من قولهم كساء موجه : له وجهان (حاشية الجرجاني) .

وعقيدتهم عقيدتهم، فهو كفر لا إيمان، فإذا قالوه على وجه النفاق خديعة للمسلمين واستهزاء بهم، وأروهم أنهم مثلهم فى الإيمان الحقيقى كان خبثاً إلى خبث وكفراً إلى كفر.

* * *

ج ١٥ ص ١٩٦ : وكتب (على بن يوسف القفطى يعرف بالقاضى الأكرم) إلى القاضى الفاضل رقعة وضمنها البيت المشهور:

نميل إلى جوانبه كأنا ... إذا ملنا نميل على أبينا

قلت: الرواية (نميل على جوانبه) وبعده:

نقلبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرماً ولينا

والبيتان لأبى الجهم العدوى يقولهما فى معاوية (رضى الله عنه). وقد رواهما ابن قتيبة فى (عيون الأخبار) فى (باب الحلم والغضب).

* * *

ج ١ ص ١٣٨ : تنسّم أعلى السماء. قلت: تسنم أعلى السماء. فى التاج: تسنم الشيء تسنماً وسنمه تسنيماً علاه. وتنسم النسيم إذا تشممه كتنسم العليل والمحزون إياه فيجدان لذلك خفة وفرحاً.

* * *

ج ٦ ص ١٥ : ... قد والله زانيته دفعات.

وفى الشرح: فى الأصل زنيته فاصلحتها إلى زانيته بمعنى نسبته إلى الزنا ويقال أزناه نسبه إلى الزنا.

قلت: الأصل صحيح وياقوت هنا ينقل من الأغانى واللفظة فى كتاب أبى الفرج(1) هى كما جاءت فى (الإرشاد) فى الأصل. وفى (الأغانى)(2) هذا الخبر:

المدائنى قال: قال عبدالله بن مسوّر الباهلى يوماً لأبى النضير وقد تحاورا فى شيء: يا ابن اللخناء، أتكلمنى ولو اشتريت عبداً بمثتى درهم وأعتقته لكان خيراً منك؟ فقال له أبو النضير: والله لو كنت ولد زنا لكنت خيراً من باهلة كلها. فغضب الباهلى، فقال له بشار: أنت منذ ساعة تزنّى أمه ولا يغضب، فلما كلمك

(١) ج ٥ ص ٢٩٨.
(٢) ج ٣ ص ٢١٢.

كلمة واحدة لحقك هذا كله. فقال له: وأمه مثل أمى يا أبا معاذ؟ فضحك ثم قال: والله لو كانت أمك أم الكتاب ما كان بينكما من المصارمة هذا كله.

وقد أورد اللفظة كما قصد هنا الصحاح والأساس واللسان والتاج. وفى كتاب سيبويه ج ٢ ص ٢٣٥: فأما خطّأته فإنما أردت سميته مخطئاً كما أنك حيث قلت فسّقته وزنيته أى سميته بالزنا والفسق كما تقول: حييته أى استقبلته بحياك الله.

* * *

ج ١٤ ص ١٠٧ : فدخلت عليه وهو جالس على كرسى ملوكى وعليه بغدادية مشهورة وعلى رأسه بطيخية.

وجاء فى الشرح. يريد ثيابا بغدادية، والبطيخية قلنسوة على شكل البطيخة.

قلت: (بِطيخية) فى المصباح: قال ابن السكيت فى باب ما هو مكسور الأول. وتقول هو البطيخ، والعامة تفتح الأول، وهو غلط لفقد فعّيل بالفتح.

* * *

ج ١٣ ص ٣٦ : وله (لعلى بن حسن الباخرزى):

روقك بشرا وهو جذلان مثلما ... تخاف شباه وهو غضبان محنق

كذا السيف فى أطرافه الموت كامن ... وفى متنه ضوء يروق ورونق

قلت: (وهو غضبان محنَق) فى الأساس: مالك مغيظا محنَقاً. وفى السيرة لابن هشام وديوان الحماسة:

هل يسمعن النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق

أمحمدٌ ولأنت ضنء نجيبة ... فى قومها والفحل فحل معرق(1)

ما كان ضرك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنَق

فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تُشقق!

(١) نون الاسم المعظم (محمد) ضرورة. فى كتاب سيبويه: فلما لحقه التنوين اضطراراً (سلام الله يا مطر عليها) لم يغير رفعه كما لم يغير رفع ما لا ينصرف إذا كان فى موضع رفع ... وكان عيسى بن عمر يقول يامطراً يشبهه بقوله يارجلا يجعله إذا نون وطال كالنكرة. ولم نسمع عربياً يقوله وله وجه من القياس. ج ١ ص ٣١٣.

وهذه الأبيات من مقطوعة مصنوعة أوردها محمد بن إسحاق في (السيرة) وقال: «وقالت قُتَيْلة بنت الحارث أخت النضر ابن الحارث تبكيه» وقد استجادها حبيب — وإنها والله لجيدة — فاختارها في (حماسته).

وابن إسحق هذا هو الذي يقول فيه ابن معين — كما جاء في ميزان الاعتدال في نقد الرجال —: «ما لابن إسحق عندي ذنب إلا ما قد حشا في السيرة من الأشياء المنكرة والأشعار المكذوبة»

وجاء في الميزان: «قال أبو بكر بن الخطيب: روى أن ابن إسحق كان يدفع إلى شعراء وقته أخبار المغازي ويسألهم أن يقولوا فيها الأشعار ليلحقها بها» وقد ندد محمد بن سلاّم الجمحي في (طبقات الشعراء) بابن إسحق ونقل طعنه فيه السيوطي في (المزهر).

والنضر بن الحارث أسر في بدر وقتله علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) صَبرا(١) عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالصفراء وقيل بالأُثَيل. «وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مجلساً فذكر فيه بالله وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا (والله) يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار».

قال ابن هشام راوي خبر النضر:

«فيقال (والله أعلم) إن رسول (صلى الله عليه وسلم) لما بلغه هذا الشعر قال: لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه».

قلت: إن الذي قيل هو من الأباطيل، فما عملت قتيلة في أخيها شعراً، ولم يقل النبي ما عزى إليه، وما كان النضر المحتشد المجتهد في هدم ذلك البناء الإسلامي الإنساني العربي حقيقاً بأن يمن ذلك الباني عليه.

(١) الصحاح: قتل فلان صبراً وحلف صبراً إذا حبس على القتل حتى يقتل أو على اليمين حتى يحلف. وفي اللسان: قيل للرجل يقدم فيضرب عنقه قتل صبراً يعني أنه أمسك على الموت. وكل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبراً.

من خواطر جحا:

الغراب الطائر . . . !

للأستاذ كامل كيلاني

[مهداة إلى نقلة الشوائع والأخبار الذين عناهم الشاعر بقوله]:

« هم نقلوا عني الذي لم أفه به
وما آفة الأخبار إلا رواتها »

يسرنا أن ننقل إلى القراء القصة البارعة التالية من القدمة الشائقة التي صدر بها «عبد الله جحا» خواطره وقصصه نقلا عن المخطوط الجحوي النفيس الذي عثرت عليه، ولعله مكتوب بخط صاحبه أو أحد معاصريه.

قال «أبو الغصن عبد الله دجين بن ثابت» الملقب بجحا: «سمعت ذات يوم أن رجلا — في أقصى المدينة — تقايأ غراباً، ثم لم يلبث الغراب أن طار، وغاب عن الأنظار. فسألت مخبري عمن أخبره بهذا؟ فقال: «فلان»، فرحت إلى «فلان» أسأله جلية الخبر، فقال: «لقد رويت لصاحبي هذا الخبر، ولكنني لم أقل إن الغراب طار، بل قلت إنه سارٍ (أي مشى)»، فسألته عمن أخبره بذلك؛ فقال: «فلان»، فلما سألت فلاناً أخبرني أن الغراب لم يسر ولم يطر، ولكنه وقف ساكناً، ثم مات بعد قليل. وسألته عمن أخبره بذلك فسماه لي، وما زلت أتقصى الخبر من رواته — واحداً بعد الآخر —: هذا يخبرني أنه سمع أنه لم يتقايأ غراباً، بل طائراً يشبه الغراب. وما زال الخبر يتناقص كلما تتبعته وقربت من مصدره، حتى لقيت صاحب القصة نفسه، فلما أفضيت إليه بما سمعته، وسألته عن جلية الأمر، ضحك متعجباً من تحريف الأخبار ثم قال: «لقد تقايأت — منذ أيام — فقال أحد الحاضرين مداعباً: إن قيئك يشبه لون الغراب. وما زال الخبر ينتقل من واحد إلى آخر حتى زعم الزاعمون أنني تقايأت — كما سمعت — غراباً، ثم لم يلبث الغراب أن طار، وغاب عن الأبصار» ...

(وفق الأصيل) كامل كيلاني

التصوير الفني والعقيدة في القرآن

للأستاذ سيد قطب

طال الجدل بين الأستاذ عبد المنعم خلاف وبيني حول هاتين النقطتين منذ أصدرت كتابي « التصوير الفني في القرآن » ولم يكن بد من أن يطول ، فالموضوع في ذاته خصب يحتمل الطويل ، والأمر بيني وبين الصديق في هذا الجدل ليس فكرة عارضة ولا خاطرة سريعة ، إنما هما نظرتان مختلفتان للعقيدة بل للحياة . فما سجلته في كتابي وما ناقشت به الأستاذ عبد المنعم هو خلاصة عقيدتي ورأيي وفلسفتي الخاصة المبنية على كل تجاربي النفسية والذهنية في رحلتي على هذه الأرض . وما كتبه في مناقشتي هو امتداد لآرائه في كل ما قرأت له ، وبخاصة في كتابه القيم « أومن بالإنسان » ، ذلك الكتاب الذي أقعدني المرض أربعة أشهر عن أن أفرغ له بما يستحق من النقد والتنويه

***

وقد تشعب الجدل بنا في تفصيلات وجزئيات لا مجال لإعادة الحديث فيها بعد هذا الأمد الطويل ، فأحب أن أرد المسألة إلى أصلها الواحد الكبير لتكون لدى القراء منها صورة كلية يشارك في دراستها من يشاء

المسألة في صميمها تتلخص في كلمات :

أمن الممكن أن نعهد إلى الذهن وحده بأمر العقيدة ، وأن نقيم هذا البناء الضخم في الضمير الإنساني على أساس القوة الذهنية ومنطقها المعهود ؟

أما أنا فلا أتردد في الإجابة بالنفي على هذا السؤال ، فأنا لا أثق بالذهن كل هذه الثقة ، ولا أعتقد أنه ينهض وحده لحمل هذه الأمانة ؛ وإنما قصاراه في هذا المجال أن يكون منفذاً واحداً من منافذ العقيدة إلى النفس الإنسانية — وليس هو مع ذلك أقرب المنافذ ولا أصدقها — وإنه لن يصل إلى شيء يذكر إلا بوحي من البداهة وهدى من البصيرة ، البداهة التي تدرك الحقائق الخالدة في هذا الكون منذ النظرة الأولى وبلا فلسفة ذهنية ولا قضايا منطقية ، والبصيرة التي تتصل مباشرة بالله فتدرك وجوده إدراكاً كلياً قد يعجز الذهن عنه لو تركنا له وحده المجال . ومن هنا كان « المنطق الوجداني » الذي يعتمد على هذه الحقائق الخالدة ، وعلى إدراك البصيرة لها وإقرار البداهة بها ، هو الطريق الذي سلكه القرآن في تقرير العقيدة الإسلامية ، لأنها « عقيدة » ، وكل عقيدة مقرها الضمير الإنساني الكبير لا الذهن البشري المحدود الصغير

وأما الأستاذ عبد المنعم ، فيبدو أن ثقته بالذهن كبيرة إلى حد أن يعهد إليه بالأمر كله ، ويأتمنه عليه في النهاية !

على أنه كان يكون هناك محل للجدل ، لو أنني أخرجت الذهن كلية من المجال ، ولكنني لم أرد هذا ، وليس في كتابي ما يدل على أنني أردته ، وقد نقلت منه في كلماتي الماضية نصوصاً كثيرة ، ثم لقد قرأه الكثيرون أيضاً ، ولست أعتقد أن أحداً من القراء قد فهم أنني أطرد الذهن من الحلبة ؛ إنما أنا أضع الذهن في مكانه المناسب ، فلا أغفله إغفالا في مجال العقيدة ، ولكنني كذلك لا أتجاوز به هذا المكان المحدود

وأحب أن أصحح هنا وهماً صححته من قبل في الكتاب في هذه الفقرات :

« كانت وظيفة القرآن إذن أن ينشئ هذه العقيدة الخالصة المجردة — عقيدة التوحيد — وموطن العقيدة الخالد هو الضمير والوجدان — موطن كل عقيدة لا العقيدة الدينية وحدها — وأقرب الطرق إلى الضمير هو البداهة ، وأقرب الطرق إلى الوجدان هو الحس . وما الذهن في هذا المجال إلا منفذ واحد من منافذ كثيرة ، وليس هو على أية حال أوسع المنافذ ولا أصدقها ولا أقربها طريقاً .

« وبعض الناس يكبرون من قيمة هذا الذهن في هذه الأيام بعد ما فتن الناس بآثار الذهن في المخترعات والمصنوعات والكشوف وبعض البسطاء من أهل الدين تبهره هذه الفتنة فيؤمن بها ، ويحاول أن يدعم الدين بتطبيق نظرياته على قواعد المنطق الذهني أو التجريب العلمي !

« إن هؤلاء — في اعتقادي — يرفعون الذهن إلى آفاق

فوق آفاقه . فالذهن الإنسانى خليق بأن يدع للمجهول حصته ، وأن يحسب له حسابه . لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية . ولكن يدعو إليه اتساع الآفاق النفسية ، وتفتح منافذ المعرفة . « فالمعقول » فى عالم الذهن ، و « المحسوس » فى تجارب العلم ، ليس كل « المعروف » فى عالم النفس . وما الفكر الإنسانى — لا الذهن وحده — إلا كوة واحدة من كوى النفس الكثيرة . ولن يغلق إنسان على نفسه هذه المنافذ ، إلا وفى نفسه ضيق ، وفى قواه انحسار ، لا يصلح بهما للحكم فى هذه الشئون الكبار » .

والأمر الذى أريد أن أقرره ، وأصحح به وهماً قد يرد على بعض الأذهان : هو أن العقيدة أكبر من الذهن ، فلا يعيبها ألا تعتمد على الذهن وحده ، وأن يكون لها منافذ إلى الضمير الإنسانى غير هذا الذهن المحدود .

ولم يفتنى أن أشير إلى هذا فى ختام الفصل الذى عقدته فى الكتاب تحت عنوان « المنطق الوجدانى » فقد جاء فيه :

« لم يكن المنطق الذهنى ليصل إلى شىء لو اتبعه القرآن ؛ لا لأن ما فيه من حقائق لا يثبت لهذا المنطق ؛ ولكن لأن العقيدة لا ينشئها هذا الجدل . إنها دائماً فى أفق أعلى من هذه الآفاق . وما يعيب العقيدة أن يكون عمل الذهن فيها ضئيلا . فما الذهن إلا قوة صغيرة محدودة ، تتعلق باليوميات ، وما هو بسبب من اليوميات » .

والذى أعتقده أن « المجهول » قسط أساسى من بناء كل عقيدة — ومن عقيدة الإسلام بالطبيعة — وحين تخلو العقيدة من روعة المجهول تستحيل رأياً ، ولا تملأ جوانب النفس الإنسانية جميعاً .

وما دامت للمجهول حصته فى العقيدة ، فهناك مجال لغير الذهن بكل توكيد . والعقيدة — أية عقيدة — كلٌ لا يتجزأ فى داخل النفس ، وإن تجزأت قضاياها وتعددت أمام الذهن . والشك فى قضية منها معناه تخلخل جميع قضاياها

ويجهد الذهن ما يجهد فى فلسفة العقيدة فيكون له هذا ، ولكن بعد أن تكون العقيدة قد استقرت فى الضمير ، وسلكت إليه طرائق شتى ليس الذهن إلا واحداً منها ، لم يكن ذا أثر حاسم ولا أثر ظاهر فى عملية البناء .

وإنه لحسب الذهن أن تكون وظيفته هى تفسير هذه العقيدة بعد بنائها . تفسير ما يستطيع تفسيره منها ، أما ما لم يستطع ، فليقف على أبوابه هناك ، فقد استلهمته النفس من منافذها الأخرى التى لا شك فيها

أما الاستدلال بالآيات التى استدل بها الأستاذ على أن الذهن هو محور الإثبات فيها ، فلا أزال فيه عند رأيى الذى أبديته : وهو أن القرآن كان أعرف بالنفس الإنسانية من الأستاذ عبد المنعم فلم يسق الآيات سياقته لها ، بل تركها فى إجمالها الذى يخاطب قوى النفس جميعاً ، ولا ينفرد بالذهن المحدود فى نقاش جدلى قابل للردود الجدلية على طريقة الذهن المعهودة ...

على أن هناك واقعة تاريخية لا سبيل إلى الجدال فيها : هى أولئك الذين آمنوا ، أو كثرتهم التى لا يتخلف عنها إلا أفراد . وهؤلاء لم ينتظروا من يفلسف لهم الأدلة ، حتى يؤمنوا بالمنطق الذهنى ؛ إنما هم استراحوا إلى نصوع هذه العقيدة ونفاذها إلى نفوسهم من شتى منافذها ، فآمنوا مطمئنين !

* * *

أما القضية الأخرى التى يجادلنى فيها الأستاذ ، فهى قضية التصوير الفنى فى القرآن ... وهى أيسر وأوضح من القضية الأولى

فأما أنا ، فرأيى أن إدراك التصوير القرآنى فى هذا المستوى المعجز إدراك لسر الإعجاز فى تعبير القرآن .

وأما هو ، فيرى ألا أذكر كلمة الإعجاز هذه ، لأن هذا السر يجب أن يبقى مجهولا أبداً حتى يتحقق له وصف « الإعجاز »

ولقد قلت من قبل ، وأكرر اليوم : إنه ليس من الحتم أن يكون الأمر المعجز هو المجهول السر ، فيكفى ألا يستطيعه أحد مع التحدى . ولم يستطع أحد أن يرقى إلى مستوى التناسق الفنى فى هذا التصوير لم فادرا كه إدراك لسر الإعجاز — على الأقل فى هذا الأوان ، وليس ما يمنع من ظهور أسرار أخرى غير ما ظهر منها حتى الآن —

على أننى كنت دقيقاً فى التعبير ، فلم أقل سر الإعجاز فى

من التاريخ الإسلامى :

رجـــل وامرأة . . .

للأستاذ على الطنطاوى

[يقولون : إن التاريخ يعيد نفسه
وربما كان صحيحاً هذا الذى يقولون]
« ع »

كان ذلك فى يوم من أيام سنة ٦٠٧ هـ وكانت دمشق تصارع دهرها المناشم الحرون ، الذى رمى بلاد الشام بقاصمة الأصلاب : الصليبيين ، فنزلوا على مدنه نزول البلاء ، وفشت أجنادهم فى نابلس وعكا وبلاد أخر فشوّ الطاعون ، وكان صبرها يزيد كلما زاد الكرب ، وحزمها ينمو كلما نمت المصيبة ، شأن دمشق فى كل عصر . وكأن طوفان المغيرين يمتد ويتسع ، يحمل الموت والدمار ، يأتى على البلاد والعباد ، يجتث الحضارة من أصولها ، وأهل الشام ينهضون له فلا يملكون له دفعاً ، حتى كادت الديار تخلو من شبابها ، ولا يبقى فيها إلا شيخ أو امرأة أو صبى ... أو قَعَدى نسى واجب الجهاد !

... وقد ذهب فيمن ذهب إخوة (ميسون) الأربعة ، وبقيت من بعدهم وحيدة فى دارها لا يؤنسها إلا شبابها وجمالها وذكرى إخوتها ...

* * *

أصبحت ميسون مهمومة ، قد تقاسم فكرها العزيزان : وطنها وإخوتها ، فما تدرى ماذا جرى لهم ، وماذا يجرى عليه ، ولقف سمعُها طرفاً من أحاديث المارة ، فعلمت أنه قد اشتد الخطر ، ودنا الهلاك ، وأن هؤلاء (الواغلين ...) لا يفتأون يركبون جناح الليل الأسود ، إلى شاطىء فلسطين ، تحملهم المواخر الهاربة من عين الرقيب ، المتسللة من وراء الحرس ، فكلما دجا الظلام نزلوا إلى الشط أفواجاً فكانوا للغاصبين عوناً ، وعلى أهل البلاد حرباً ، وجعلت تفكر فى هذه العصبة المجاهدة الكريمة ، ماذا تستطيع أن تصنع لها ؟ وكيف توقد النار فى أعصاب هؤلاء الذين لا يزالون يروحون ويغدون على متاجرهم وأعمالهم ، ويأخذون حظوظهم من مفاتن الطبيعة وجمال الكون ، وتنسيهم ملذاتُ

« القرآن » إنما قلت : سر الإعجاز فى « تعبير » القرآن . وفرق كبير مابين العبارتين . فالإعجاز فى القرآن شائع ، وشامل لتعبيره ومنحاه وقضاياه ... الخ

غير أن العجيب فى الأمر أن الأستاذ عبد المنعم الذى يريد أن يعهد إلى الذهن البشرى بقضية العقيدة كلها ، لا يأتمن هذا الذهن على إدراك سر من أسرار الإعجاز فى تعبير القرآن !

* * *

وكلمة أخرى تتصل بالجدل وإن تكن ليست منه :

لقد شكا الأستاذ عبد المنعم من عبارات جاءت من غير قصد فى ردودى ، فأحب ألا يكون فى نفسه منها أثر ، ليظل هذا الجدل العلمى المفيد بعيداً عن جميع المؤثرات

وبدورى أشكو إليه كلمة ظالمة قالها عن كتابى ، تاركا ماعداها مما لو رحت أعده عليه ، لأربى على مواضع عتبه :

هذه الكلمة الظالمة هى أن يقرن بين بعض عملى فى « التصوير الفنى فى القرآن » ، وبعض عمل المرحوم الأستاذ « الرافعى » فى « إعجاز القرآن » ، وإنه ليعلم ، وقراء الكتابين يعلمون أنه ما من نقطة ارتكاز واحدة بين النهجين والطريقتين . بل لقد قرر بعض النقاد المنصفين أن طريقتى فى عرض الجمال الفنى فى القرآن غير مسبوقة فى كل ما كتب عن هذا الموضوع الخالد على الزمان

وكل ناقد منصف عليه أن يسجل أولا هذه الحقيقة . ثم ليكن له رأيه فى نقد هذه الطريقة وعيبها كما يريد ؛ فهى قابلة للنقد والعيب ككل عمل إنسانى فى الوجود .

وعلى أية حال فللأستاذ عبد المنعم شكرى الخالص ، وإليه ثنائى الجم الذى أحسب القراء يشاركوننى فيه ، لإخلاصه فيما كتب وسلوكه طريق النقد الصحيح .

سيد قطب

أجسامهم ومرابحُ تجاراتهم ، هذا الخطر الذى عم البلاد ، والذى طال الزمان به ، ونشأوا عليه ، فألفوه ونسوا أيام الحرية والمجد ، وأن هذه البلاد بلادهم ، وأنهم سلائل الأبطال الفاتحين ، وحسبوا حكم هؤلاء (الواغلين ...) ضربة لازب ، وأن قضاء الله قد تم فيهم فلا ينفع معه سعى ، وأن أيام السعادة قد انتهت فلا تؤمل لها رجعة ، كيف لها وهى الفتاة المفردة بإيقاظ هذه النفوس التى امتد بها الهجوع حتى كاد يكون موتاً ؟ كيف تفهم هذه الشخوص التى تجيء وتذهب كشخوص من ورق فى العوبة (الكراكوز) ، أن الحياة ليست بطناً يملأ ، ولا شهوة تقضى ، ولا مالاً ينال ، ولكن الحياة المجد والتقى ، وجلائل الأعمال ، وأن يعرفوا للوطن حقه ، وأن يعلموا ، ويعلم كل عربى ، وكل مسلم ، أنه ما دام فى فلسطين (واغل ...) واحد من هؤلاء ، فحرام أن ينعم زوج بأهله ، أو غنى بماله ، أو يغلق جفن على لذيذ المنام ؟

وإنها لفى تفكيرها ، وإذا بالباب يخفق ، وإذا هو نعى إخوتها الأربعة ...

* * *

صعقت ميسون لهذا النبأ ، وعجز جسمها اللدن ، وقلبها الرقيق عن حمله ، فتضعضعت وانهارت ، ولكن الإيمان والشباب ثنيا فى نفسها ، ونهضا من تحت أنقاض الصبر ، وخلال غبار المصيبة ، يوقظان اللبؤة للانتقام . لقد كان وِتراً واحداً فصارا وِترين ، وكانت تطلب ثأر وطنها فلتطلب ثأر وطنها وإخوتها ، ووضعا البارود فى أعصابها كما يوضع فى المدافع ، ثم أرسلاها فى هذا الشعب الهاجع ، تقرع أذنه بالرعود فيفيق أو ينام إلى الأبد ...

وأحست ميسون أن فى عضلاتها القوة التى تهز دمشق هزاً ، وفى حنجرتها الصوت الذى يسمع الأموات ، وفى قلبها العزم الذى لا يكلّ ، والمدد الذى لا ينقطع ، والأيد الذى يفل الجيوش ، ويدك الحصون ؛ وكذلك الإيمان إن نزل بقلب امرأة جعل منها بطلا لا يغلب ، وما أعجب ما يصنع الإيمان !

* * *

وهمت ميسون أن ترتدى ثيابها ثم تطلب ميدان العمل ، وتلفتت حولها فلم تجد لها فى الأرض قريباً ، ولا ذا رحم ، فقطعت أسبابها من الأرض ثم وصلتها بالسماء ، فشعرت كأنها مؤيدة بقوة إلهية ، اصطفتها من دون الناس ، لتعلم ، وهى الفتاة الغريضة الناعمة ، لتعلم هؤلاء الرجال ، الرجولة كيف تكون !

ولم تعلم من أين تبدأ العمل ، وجعلت تفكر ، وهى تمرّ يدها على شعرها المنسدل حولها ، المتموج كالحرير يفتن العبّاد لو أرادت به الفتنة ويأسر قلوب الفرسان ، فسطعت لها الفكرة كما يسطع البرق خلال الظلام ، إن هذا هو سلاحها ، لتشدنّ الرجال بهذا الشعر الناعم ، ثم لتقودنهم من أعناقهم إلى المعمعة الحمراء ، لتجعلن من ضعفه قوى تأكل القوى .

وذهبت فنادت جارات لها كن يقتدين بها ، ويسمعن منها ، فذكرت لهن مصابها فى إخوتها ، فحسبنها قد دعتهن ليواسينها ويخففن عنها ، ولكنها مضت فى حديثها مُصْعِدةً ، حتى سمت إلى فلك التضحية ونسيان النفس ورفعتهن معها ، حتى إذا استوثقت منهن ، قالت : إننا لم نخلق رجالا نحمل السيوف ، ونقود الخميس ، ولكنا إذا جبن الرجال لم نعجز عن عمل ، وهذا شعرى أثمن ما أملك أنزل عنه ، أجعله قيداً لفرس تقاتل فى سبيل الله ، لعلى أحرك هؤلاء الأموات .

وأخذت المقص فجزت شعرها وصنع الفتيات صنعها ، ثم جلسن يضفرنه ليوم الكريهة ، لجماً وقيوداً لخيل المعركة العابسة ، لا يضفرنه ليوم الزفاف ، ولا لليلة العرس .

* * *

أرسلن هذه القيود واللجم ، إلى خطيب (الجامع الأموى) سبط ابن الجوزى المعظم ، فحمله إلى الجامع يوم الجمعة وقعد فى المقصورة وقد زلزلته الحماسة فما يستقر ، ونفد منه الصبر فما يدرى أيان يصعد المنبر ، فما آن الأوان حتى أسرع بالصعود وجلس وهذه اللجم وهذه القيود بين يديه ، والدمع يترقرق فى عينيه ، ووجهه ممتقع شاحب ، والناس يلحظون ذلك كله ، وينظر بعضهم فى وجوه بعض ، فلما انتهى الأذان قام فتكلم ...

خطب خطبة حروفها من نار تلذع أكباد من يسمعها ، وكأنها سحر لم يدرِ هو مأتاه لأن قلبه كان يتلقاه من عالم مجهول ، فيقذف به على لسانه ، ولم يستطع أحد أن يرويها لأنها خطاب من الروح إلى الروح ، قد ذابت كلمتها فى معانيها ، ثم استحالت

معانيها إلى إيمان وتضحية وبذل ، فكانت إحدى هذه المعجزات البلاغية التي يهدر بها كل عصر مرة ، لسان محدّث ، أو يمشى بها قلم مُلْهَم ، كرامةً من الكرامات ، وواحدةً من خوارق العادات ، يجعل الله بها الكلمات أحياء عظيمة لها روح تجذب الأرواح ، ويد تشدّ الأعصاب ، وعيون تبصّر العيون ... وإنما حفظوا منها جملاً ، نقلوها إلى لسان الأرض ، فجاءت كتمثال الحسناء ، جميل ولكنه من الشمع ... وكان مما حفظوا :

* * *

«يا من أمرهم دينهم بالجهاد حتى يفتحوا العالم ، ويهدوا البشر إلى دينهم ، فقعدوا حتى فتح العدو بلادهم وفتنهم عن دينهم ! يا من حكم أجدادهم بالحق أقطار الأرض ، وحُكِموا هم بالباطل في ديارهم وأوطانهم !

يا من باع أجدادهم نفوسهم من الله بأن لهم الجنة ، وباعوا هم الجنة بأطماع نفوس صغيرة ، ولذائذ حياة ذليلة !

يا أيها الناس :

ما لكم نسيتم دينكم ، وتركتم عزتكم ، وقعدتم عن نصر الله فلم ينصركم ، وحسبتم أن العزة للمشرك وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنين يا ويحكم أما يؤلمكم ويشجي نفوسكم ؟ مرأى عدوّ الله وعدوكم ، يخطر على أرضكم التي سقاها بالدماء آباؤكم ، يذلكم ويتعبدكم وأنتم كنتم سادة الدنيا ؟

أما يهز قلوبكم ، ويُنمّي حماستكم ، أن إخواناً لكم قد أحاط بهم العدو ، وسامهم ألوان الخسف ؟! أما في البلد عربي ؟ أما في البلد مسلم ؟ أما في البلد إنسان ؟ العربي ينصر العربي ! والمسلم يعين المسلم ! والإنسان يرحم الإنسان ! فمن لم يهب لنصرة فلسطين ، لا يكون عربياً ولا مسلماً ولا إنساناً !

* * *

أفتأكلون وتشربون وتنعمون وإخوانكم هناك يتسربلون باللهب ، ويخوضون النار ، وينامون على الجمر ؟

يا أيها الناس ، إنها قد دارت رحى الحرب ، ونادى منادى الجهاد ، وتفتحت أبواب السماء ، فإن لم تكونوا من فرسان الحرب ، فافسحوا الطريق للنساء يدرن رحاها ، واذهبوا فخذوا المجامر والمكاحل ! يا نساء بعمائم ولحى ! أوْ لا ... فإلى الخيول . وها كم لجمها وقيودها ...

يا ناس . أتدرون مم صنعت هذه اللجم والقيود ؟

لقد صنعها النساء من شعورهن لأنهن لا يملكن شيئاً غيرها ، يساعدن به فلسطين ...

هذه والله ضفائر المخدرات التي لم تكن تبصرها عين الشمس صيانةً وحفظاً ، قطعنها لأن تاريخ الحب قد انتهى وابتدأ تاريخ الحرب المقدسة ، الحرب في سبيل الله ، وفي سبيل الأرض والعرض ، فإذا لم تقدروا على الخيل تقيدونها بها فخذوها فاجعلوها ذوائب لكم وضفائر ... إنها من شعور النساء ، ألم يبق في نفوسكم شعور !

وألقاها من فوق المنبر على رؤوس الناس ، وصرخ :

« تصدعي يا قبة النسر ، وميدي يا عَمَد المسجد ، وانقضّي يا رجوم ، لقد أضاع الرجال رجولتهم ... »

فصاح الناس صيحة ما سمع مثلها ، ووثبوا يطلبون الموت !

* * *

بلغت الحياة هذه القلوب فماشت بحمية الإيمان ، وحماسة الشرف ، وعاش فيها إرث الجدود ، فهبت دمشق ، يستبق رجالها في طريق الجهاد ، وتوالت الأمداد على الملك المعظم في نابلس ، ونابلس دائماً مطلع شمس النصر ، ونابلس دمشق فلسطين ، وكانت هجمة الأسود على الأعداء (الواغلين ...) فطردوهم حتى التجأوا إلى عكا ، فحاصروهم فيها حتى أشرفوا على الهلاك ، فاستسلموا ...

وكذلك جاء النصر على يدى رجل وامرأة ، أما الرجل فقد أكرمه الله فجعله أحد العظماء الخالدين ، وأما المرأة فقد كافأها فردّ عليها إخوتها الأربعة سالمين مظفرين ، لم يصبهم سوء ...

وعلمت الدنيا أن أتباع محمد ، لا يذلون ولا يستعبدون ، ما بقى فيهم رجل واحد ، أو امرأة مفردة ، طوت صدرها على إيمان صحيح ، وأنهم قد ينامون ولكنهم لا يموتون ، وأن (الواغلين ...) عليهم ، في فلسطين وغير فلسطين قد يقيمون حيناً ولكنهم لا يستقرون ولا يملكون !

علي الطنطاوي

من محاسن التشريع الاسلامي

المساواة فى التكاليف والأحكام

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

— ٣ —

أحكام الشريعة الإسلامية ، وتكاليفها مبنية على مبدإ المساواة ، كلّف بها الأفراد والجماعات بلا تمييز : فأحكامه ، وعقوباته ، وحدوده لا يستثنى منها غنى واسع الثراء ، ولا أمير عريض الجاه ، ولا خليفة تدين له الخلائق بالطاعة والامتثال ، فالمسلمون كلهم متساوون فى الحقوق والواجبات ، وفى التكليف والأحكام والقوانين ، لا فرق بين عربى وعجمى ، ولا بين أبيض وأسود ، ولا بين حاكم ومحكوم ، تقرر هذا المبدأ من يوم أن بزغت شمس الإسلام ، وسطع النور المحمدى ، منذ نيف وثلاثة عشر قرناً ونصف

وهنا تغلبنا الدلائل والشواهد كثرة ، ولذلك سنجتزئ بذكر بعضها فنقول :

١ — من أصول التشريع الإسلامى — وهو من مميزاته كذلك — اعتبار النصوص الشرعية موجهة إلىٰ الأمة كلها ، ما لم يدل دليل على الخصوصية ، ومن قواعد أصول الفقه عدم الخصوصية فى الأحكام التكليفية .

٢ — صاحب الشريعة صلوات الله وسلامه عليه وضع هذا الأصل ، وأقره عملا وقولا ، ودعا أمته إلى الأخذ به وعدم التهاون فيه ، فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام دعا الأعرابى الذى خدشه غير متعمد ، فقال له : اقتص منى ، فقال الأعرابى : قد أحللتك بأبى أنت وأمى ، ما كنت لأفعل ذلك أبداً ، ولو أتيت على نفسى ، فدعا له بخير .

وفى خطبته فى حجة الوداع عرض لبعض ما كان يقترف فى الجاهلية ، فحكم بأنه موضوع بالنسبة لجميع المسلمين ، وخص بالذكر ذوى القربى لإدخالهم فى الحكم الذى يؤخذ به الجميع ، حتى لا يتوهم متوهم أن لهم مزية على من سواهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وإن ربا الجاهلية موضوع[1] ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب » ، وخرج مرة فى مرض موته ، فكان مما كلم به الناس قوله : «أيها الناس ، من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقدْ منى ، ومن كنت شتمت له عرضاً ، فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا ، فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء ، فهى ليست من شأنى » .

ومن ذلك أن الربيّع بنت النضير لطمت جارية فكسرت ثنيتها ، فطلب أهل الجارية القصاص . فأمر رسول الله به ، فجاء أخو الربيّع أنس بن النضر ، وكان من خاصة الصحابة ، فقال : يا رسول الله : لا والذى بعثك بالحق ، لا تكسر ثنية الربيع ، فقال الرسول : كتاب الله القصاص ، فلم يزل أنس يقول لرسول الله حتى جاء أهل الجارية راضين بدفع الأرش[2] ، فقضى رسول الله به كذلك نسوق إليك قضية ، هى أروع ما يذكر فى هذا الباب : قضية المرأة المخزومية التى سرقت حليا فى زمن رسول الله ، وكانت من بيت مجادة وشرف ، فلما أراد الرسول إقامة الحد عليها عظُمَ ذلك على المهاجرين ، وقالوا من يشفع لها عند رسول الله ؟ فقالوا من يشفع إلا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ، فتكلم أسامة مع الرسول ، فغضب وقال له : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ! ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

(حـ) حدثنا التاريخ أن محمد بن عمرو بن العاص زمن ولاية أبيه على مصر — كان يجرى الخيل ، فنازعه أحد المصريين السبق ، فغضب ، ووثب على المصرى يضربه بالسوط ويقول له : خذها ، وأنا ابن الأكرمين ، فقدم المصرى إلى الخليفة عمر يشكو ، قال أنس بن مالك راوى القصة : فوالله ما زاد عمر على أن قال له :

(١) من وضع الجناية عنه : أسقطها .
(٢) الأرش : دية ما دون النفس .

اجلس ... ومضت فترة ، إذا به فى خلالها قد استقدم عمراً وابنه ، فقدما ومثـــلا فى مجلس القصاص ، فنادى عمر : أين المصرى ؟ دونك الدرة ، فاضرب بها ابن الأكرمين ، فضربه حتى أثخنه ، ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه ... قال عمرو فزعاً : يا أمير المؤمنين ، قد استوفيت واشتفيت ؛ وقال المصرى معتذراً : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربنى ... فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه ، حتى تكون أنت الذى تدعه ، والتفت إلى عمرو مغضباً ، وقال له تلك الكلمة الخالدة : « يا عمرو ، متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

(د) كذلك حدثنا أن جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان حج بعد إسلامه ، فبينا هو يطوف بالبيت يجر ثوبه — وطئ رجل من فزارة ثوبه ، فلطمه جبلة فهشم أنفه ، وكسر ثناياه ، فاستعدى الفزارى عليه عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : إما أن يعفو عنك الفزارى ، وإما أن يقتص منك . فقال جبلة : أيقتص منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ قال عمر : قد شملك وإياه الإسلام ، فما تفضله إلا بالعافية والتقوى . قال جبلة : ما كنت أظن إلا أن أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية ؛ قال عمر : دع عنك هذا . فلما رأى جبلة حرص عمر على القصاص ، قال : أنظر فى أمرى الليلة ؛ ورحل بليل بخيله ورواحله ولحق بالشام ، ثم بالقسطنطينية فتنصر وبقى عند قيصر ، ومما يعزى إليه قوله فى ذلك سادما :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة
وما كان فيها لو صبرت لهـا ضرر
تكنفنى فيهـا لجاج ونخوة
وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى   رجعت إلى القول الذى قاله عمر

ولا يخل بمبدأ المساواة تخلفها فى بعض حالات قليلة محصورة لوجود مانع جبلى أو شرعى ، ولحكم ومصالح تقتضى ذلك — على ما هو مبين فى موضعه من كتب الفروع كعدم مساواة المرأة للرجل فى استحقاق النفقة عليها ، وعدم مساواته لها فى حضانة الأولاد ، وعدم مساواة المرأة للرجل فى تعدد الأزواج وفى مقدار ما يورث .

بهذا المبدأ العظيم عزت نفوس المسلمين فى صدر الإسلام ، وسمت هممهم ، وعظمت أخلاقهم ، وبرزت فيهم قوة الشخصية والمواهب ، ونجم فيهم رجال قادوا الأمة الإسلامية إلى أوج المجد والرفعة ، وساسوا العالم كله بالقسط والمعدلة ، والرفق والمرحمة ، وتلك هى روح الإسلام التى بها دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكانوا له حماة وأنصارا : « يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

(يتبع) حسن أحمد الخطيب

جيوردانو برونو

لألفرد فيبر(*)

للأستاذ عبد الكريم الناصري

ولد جيوردانو برونو Giordano Bruno فى مدينة « نولا » — القريبة من نابلى — سنة ١٥٤٨ . وقد انضم فى صباه إلى الأخوة الدومنيكية ؛ ولكن شغفه العميق بالطبيعة ، وتأثره بكتابات « نيقولا الكوسى (١) » و « ريموند لولوس (٢) » و « تيلسيو (٣) » سرعان ما حولاه عن حياة الرهبنة وعن المذهب الكاثوليكي . ثم ذهب مطوفاً فى الآفاق ، فزار جنيف وباريس ولندن ، وزار ألمانيا فشرّق فيها وغرّب . ولكن البروتستانتية لم تقنعه أكثر مما أقنعه مذهب آبائه . وعند عودته إلى إيطاليا ألقى القبض عليه بأمر من محكمة التفتيش ، وسجن عامين ، ثم أعدم حرقاً فى روما .

* * *

كان برونو أول ميتافيزيقى — فى القرن السادس عشر — قبل نظرية مركزية الشمس بلا تحفظ . وكان ينظر إلى أفلاك أرسطو وتقسياته للعالم على أنها محض أوهام . فليس للمكان مثل هذه الحدود التى رسمها له أرسطو ، هذه الحواجز المنيعة التى تفصل عالمنا عن ملكوت علوى خاص بالملائكة ، والأرواح المحضة ، والكائن الأعلى . ما السماء إلا الكون الذى لا حد له ، وما النجوم الثوابت إلا شموس تحيط بها كواكب سيارة ، ترافقها توابع أو أقمار . والأرض كوكب من هاته الكواكب ، ليس غير ، فما تشغل مكاناً مركزياً ممتازاً فى السماء . ومثل ذلك يقال فى شمسنا ، لأن الكون نظام من أنظمة شمسية .

وإذا كان الكون غير متناه فينبغى أن نقول : إنه لا يمكن أن يكون ثمت لا نهايتان ؛ ولكن وجود العالم لا يمكن أن ينكر ؛ إذن فالله والكون شىء واحد . وبرونو — لأجل أن يتخلص من تهمة الإلحاد — يميز بين الكون والعالم : فالله ، أو الموجود اللانهائى ، أو « الكون » ، هو مبدأ « العالم » أو علته السرمدية : هو الطبيعة الطابعة (أو الطبيعة مصدراً Natura Naturanc) ؛ أما العالم فهو كلية معلولات الله أو ظواهره : هو الطبيعة المطبوعة (أو الطبيعة معلولا Natura Naturata) . وفيلسوفنا يرى أن من الإلحاد أن يعتبر الله والعالم شيئاً واحداً ، إذ ليس العالم إلا مجموع الكائنات الفردية ، والمجموع ليس بكائن ، وإنما هو لفظ فحسب . فأما اعتبار الله والكون شيئاً واحداً فليس بإنكار له ، وإنما هو ، على الضد من ذلك ، تعظيم له ، لأنه توسيع لفكرة الكائن الأعلى إلى ما وراء الحدود التى يفرضها عليه هؤلاء الذين يتصورونه كائناً « بجانب » الكائنات الأخرى : أى كائناً محدوداً .

(*) يعد « تاريخ الفلسفة » للعلامة الفلسفى الألمانى ألفرد فيبر (Weber) من أهم المصادر الباحثة فى موضوعه ، وقد ترجمه إلى الانجليزية « فرانك ثيلى » (Thilly) ، أستاذ الفلسفة بجامعة كورنل الأميركية .

وراجع الطبعات الأخيرة من الترجمة « رالف بيرى » (Perry) ، أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد ، وأضاف إلى الكتاب تكملة فى تاريخ الفلسفة منذ ١٨٦٠ (لأن كتاب فيبر ينتهى بشوبنهاور) . وهذا الفصل — الذى ترجمته عن الترجمة الانجليزية المذكورة ، والذى سأتبعه بفصول أخرى — هو الأول من (القسم الثالث) من الكتاب ، وهو القسم الباحث فى « الفلسفة الحديثة » التى تبدأ ببرونو . وقد أضفت إلى المتن شروحاً تتعلق ببعض الفلاسفة أو المذاهب ، وبعض هذه الشروح مقتبس — باختصار — عن مواضع أخرى من الكتاب ، ولكنى لم أشر إلى ذلك ، مكتفياً بهذا التنبيه .

(١) أو الكردينال نيكولاس كوسانوس ، إسمه الحقيق « كريبس » توفى سنة ١٤٦٤ . « كان يشتمل على سجايا برونو وديكارت ، وكان من الشجاعة بحيث ذهب ينتقد أخطاء الكنيسة علناً . ويوصى بالرجوع إلى فلسفة أفلاطون ، التى كان يراها هي ونظرية فيثاغورس فى الأعداد شيئاً واحداً » ألف فى الفلك والرياضيات ، وأبحاثه فى هذا الباب تشتمل على بدايات مذهب كوبرنيكوس وإصلاح التقويم ، كما أن له أبحاثاً فلسفية قيمة .

(٢) الدون ريموند لولوس (١٢٣٤ — ١٣١٥) من مدينة بالما « مزاج غريب من اللاهوتى والطبيعى ، من المبشر و (التروبادور) ؛ سعي إلى تبسيط علم العرب بواسطة منهج عام أسماه (ارس ماغنا أى (الصناعة الكبرى) . وقد أكسبته تعاليمه — التى دونها فى تآليف عديدة — أتباعا متحمسين فى خلال القرون التالية وكان همهم الأكبر اكتشاف حجر الفلاسفة وصنع الذهب » .

(٣) برنارد بنوتيليو (١٥٠٨ — ١٥٨٨) من كوسنزا مؤسس (الاكاديميا تيليانا) فى نابلى . كان راسخ القدم فى (الانانيات) . وهو فى تصوراته القوزمولوجية يقترب من المدرسة (الأيونية) ومذاهبها الطبيعية .

ومن هنا كان يحلو لبرونو أن يدعو نفسه « فيلوتيوس » أى « محب الإلهى » ، إرادة أن يميز فى وضوح بين تصوره لله وبين الإلحاد . بيد أن هذه الحيطة لم تجده نفعاً ، ولم تفلح فى تضليل قضاته .

والواقع أن إله برونو لا هو خالق العالم بل ولا هو محركه الأول ؛ وإنما هو « نفس العالم » . إنه ليس علة الأشياء المتعالية Transcendent والموقتة ؛ وإنما هو — على حد تعبير اسپينوزا — علتها الحالة Immanent ، أى الباطنة الدائمة . إنه مبدؤها المادى والصورى معاً ؛ إنه المبدأ الذى يحدثها وينظمها ويحكمها « من الداخل نحو الخارج » . إنه بالإيجاز جوهرها السرمدى . إن الموجودين اللذين يميز بينهما فيلسوفنا بلفظى « الكون » و « العالم » ليسا فى الحقيقة إلا شيئاً واحداً ، يعتبر حينا من مقام « الواقعية » (بالمعنى المدرسى) وحيناً من مقام « الإسمية[1] » .

فالكون الذى يحوى ويحدث جميع الأشياء ماله من بداية ولا نهاية ؛ أما العالم — أى مجموع الموجودات التى يحوطها ويحدثها — فله بداية ونهاية . فهنا — إذن — تحل فكرة الطبيعة والإحداث Production الضرورى محل فكرة الخالق والخلق Creation الحر ، وتعود الحرية والضرورة لفظين مترادفين ويرجع الوجود والقدرة والإرادة فى الله فعلا واحداً لا يتجزأ .

وإبداع العالم لا يكيف « الكون الإله » على أى نحو من الأنحاء ، وهو الكيان الواحد الثابت السرمدى اللامتناهى ،

(١) المذهب الواقعى أو الشيئى (Realism) فى اصطلاح القرون الوسطى هو القول بأن الكليات أو التصورات العامة أو المثل (كالجمال أو الانسان مثلا) هى حقائق أو أشياء (RES) قائمة بذاتها مستقلة عن أفرادها ، وليست تجريدات عقلية مستفادة من الجزئيات والأفراد ، كما يرى الاسميون (Nominaliste) . فان هؤلاء لا يرون في الكليات أكثر من أسماء معان أو جموع ، وتجريدات فى الذهن ليس غير . ومن هنا يتضح للقارىء أن الشيئية أو الواقعية فى عرف القرون الوسطى ترادف المثالية بالمعنى اليونانى ، وتقابل (أى تضاد) الواقعية بالمعنى الحديث . أما « الاسمية » فهى ترادف الواقعية بالمعنى الحديث . وقد احتدمت المساجلات بداية من القرن الحادى عشر حول هذين المذهبين . لأنه إذا كانت الاسمية على حق ، « فالكنيسة » التى تعتبر نفسها حقيقة قائمة بذاتها فوق الكنائس الجزئية وفوق جماعات النصارى وأفرادهم ، ترتد مجرد إسم وتكون فى المحل الثانى بالقياس إلى الأفراد .

والممتنع على القياس والمقارنة . فإنه إذ يفض نفسه[1] يحدث مالا عداد له من الأجناس والأنواع والأفراد ، ومالا نهاية له من شتى القوانين والنسب (التى تقوم حياة الكون وعالم الظواهر) من غير أن يصير هو نفسه جنساً أو نوعاً أو فرداً ، أو يخضع لأى قانون من القوانين ، أو يدخل فى أية نسبة من النسب . إنه وحدة مطلقة لا تقبل الإنقسام ، ولا شأن لها بالوحدة العددية . إنه فى كل شيء وكل شيء فيه . وليس من موجود إلا ويحيا ويتحرك ويتقوم فيه . إنه حاضر فى سنبلة القمح ، وفى حبة الرمل ، وفى الهباءة التى تسبح فى شعاع الشمس ، كما هو حاضر فى « الكل » الذى لا حد له — لأنه لا يقبل الإنقسام . وحضور (الواحد) اللانهائى فى كل مكان ، حضوراً جوهرياً طبيعياً ، يفسر — وفى الوقت نفسه يهدم — الإعتقاد الدينى بوجوده الفائق الطبيعة فى « الخبز المقدس » ، وهو الاعتقاد الذى يعتبره الدومنيكى السابق حجر الزاوية فى المسيحية . وبسبب هذا المحضر الحقيقى للكائن اللانهائى فى كل مكان ، كان كل شيء فى الطبيعة حياً ؛ فلا سبيل إلى إعدام شيء ؛ وما الموت نفسه إلا تحول فى الحياة من شكل إلى آخر ... إن مزية الرواقيين تستقر فى أنهم رأوا فى العالم موجوداً حياً ؛ ومزية الفيثاغوريين تستقر فى أنهم أدركوا ما تتسم به النواميس الحاكمة للخلق السرمدى من الثبات والضرورة الرياضية .

وبرونو يسمى « اللانهائى » أو « الكون » أو « الله » بالمادة أحياناً . وليست المادة عنده « اللاوجود » الذى قالت به المثالية اليونانية وقال به المدرسيون . فإنها عنده غير ممتدة ، أى « لا مادية » فى ماهيتها ، وليست تقبل وجودها من مبدأ إيجابى خارج عنها (الصورة) ، وإنما هى بضدذلك المصدر الحقيقى للصور كلها ، إذ هى تنطوى على أصول هذه الصور جميعاً ، وتبرزها بالتعاقب . فما كان أول الأمر بذرة يصير ساقاً ، ثم سنبلة ، ثم خبزاً ، ثم عصارة ، ثم دماً ، ثم نطفة ، ثم جنيناً ، ثم إنساناً ، ثم جثة ، ثم يعود إلى الأرض أو الحجر أو ما إلى ذلك من المواد ،

(١) (Unsolda itself)

ليبر بعد بالمراحل نفسها من جديد . وهكذا نجد هنا شيئاً واحداً يتحول إلى كل شيء ، ويبقى مع ذلك واحداً في جوهره . ومن ثم تبدو المادة وحدها ثابتة سرمدية ، وجديرة بأن تدعى مبدأ . إنها — وهي المطلقة — تتضمن الصور والأبعاد جميعاً ، وتطوز من نفسها ما لا حد له من شتى الصور التي تستعلن فيها وتظهر . ونحن حين نقول إن شيئاً قد مات ، إنما نعني أن شيئاً جديداً قد ولد ؛ فإن انحلال مركب من المركبات معنـــاه تكوين مركب جديد .

والنفس البشرية أعلى ما تتطور إليه الحياة الكونية ، فهي تنبثق من جوهر الأشياء كلها ، بفعل القوة نفسها التي تخرج السنبلة من حبة الحنطة . على أن لكل موجود في الكون جسما ونفساً ، لجميع الموجودات « مونادات » حيـة يستعلن فيهـا « موناد المونادات » أو « الكون الإله » في صورة جزئية وهيئة خاصة . والجسمانية هي الأثر الناشيء عن قوة الموناد التوسعية ، أوحركته نحو الخـارج ؛ وفي الفـكر ترجع حركة الموناد على نفسها . إن هذه الحركة المزدوجة ، من توسع وتمركز ، تقوم حياة الموناد . وهو يدوم ما دامت هذه الحركة ، ويموت حين تقف ، ولـكنه يختفي ليظهر وشيكا في صورة جديدة . وعلى هذا يمكن أن يوصف تطور الـكائن الحي بأنه اتساع مركز حيوي ، وتوصف الحيـاة بأنها ديمومة الـكرة ، والموت بأنه تقلص الـكرة وعودتها إلى المركز الحيوي الذي انبثقت منه .

إننا سنصيب هذه التصورات كلها ، وخصوصاً (تطوريّـة) برونو ، في أنظمة (ليبنتس) و (بونيه) و (ديدرو) و (هيجل) فإن فلسفة برونو تنطوي على أصولها البدائية البسيطة . هذا إلى أن هذه الفلسفة ، من حيث هي توفيق بين الوحـدية والذرية ، والمثالية والمادية ، والنظر والملاحظة ، تعتبر المصدر المشترك للمذاهب الأنطلوجية الحديثة .

(بغداد) **عبد الكريم الناصري**

٤ ـ الزندقة
فى عهد المهدي العباسى
للأستاذ محمد خليفة التونسى

ولقد حاول الفرس مراراً الإستقلال عن العرب وطرح حكمهم ودينهم منذ ملكوهم ، وقد اختفت هذه المحاولات أولا بعد خيبتهم فيها — كما قدمنا — ثم عادت إلى الظهور فى أواخر الدولة الأموية . والقارىء لتاريخ عمر وعثمان وعلى والدولة الأموية فى الكتب المبسوطة كتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى والكامل لابن الأثير وكتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون وغير ذلك تهوله كثرة انتقاضات الفرس على العرب فى البلاد الفارسية ، مما يدل على أن الاستقلال كان وسواسا لازبا فى عقول سادة الفرس .

وما أظن أبا مسلم إلا بطلا فارسيا كان يرمى إلى هدم السلطان العربى والإسلام ، وما لسبب غير ذلك حول أبو مسلم الملك عن العلويين إلى العباسيين ليبقى فى يده ، إلى جانب قوة الجيوش ، قوة الحجة ضد العباسيين بأن العلويين أحق منهم بالخلافة مادام الأمر أمر قرابة من النبى(١) . وما ثار بعده تلميذه سنباذ وثارت الراوندية إلا لهذا الغرض ، وما أبرىء البرامكة من الطمع فى هذا الاستقلال مما دعا الرشيد إلى نكبتهم ، وما استعان العباسيون بهم إلا وهم يحذرونهم ، ويتخلصون منهم فى الآونة المناسبة ، ولا أهملوا العرب إلا بعد أن يئسوا منهم(٢) ، ومع ذلك قربوا العرب وأنهضوهم حين خافوا نزوات الفرس ليضربوا هؤلاء بأولئك ، وأولئك بهؤلاء حذرا من الفريقين . وما كان النزاع بين الأمين والمأمون إلا نزاعا بين الفريقين ، ولا كانت استعانة المعتصم ومن بعده بالترك إلا عن سوء ظن بهما معا مما أدى إلى ازدياد نفوذ الترك على نفوذهما .

غير أن الفرس لم ينوا فى طلب الإستقلال حتى ظفروا به على يد الدولة البويهية (٣٢٤ — ٤٤٧ هـ) فقد أكثر العباسيون طوال القرن الثالث الهجرى من إقطاع الفرس ولايات المشرق طعمة لهم ولأخلافهم ، وهب دهاة الفرس ينشئون فى فارس إمارات وطنية ، ولكنهم حينما استعادوا بعض أملاكهم وجدوا الإسلام قد أتى على المجوسية ، واللغة العربية كادت تهزم الفارسية ، فأنابوا إلى الخليفة لأنه الحاكم الشرعى الذى تجب طاعته ، ودعوا إلى نصرته استدراجا للعامة تحت سلطانهم ، ومع غلبة الإسلام على مجوسيتهم لم يقض على عصبيتهم ، فلما استقلوا بالولايات شرعوا فى تجديد لغتهم ونقل الثقافة العربية إليها فنجحوا فى تجديدها كثيرا وخابوا فى نقل الثقافة إليها لأنها كانت قد انحطت بإهمالها زمنا طويلا .

ولقد كان الفرس البويهيون يحكمون بلاد الخلافة حتى بغداد عاصمة الدولة العباسية .

ويعنينا هنا أمر آخر أهم من كل ما تقدم هو أن العصبية الفارسية حملت الفرس على أن يحافظوا على كل ما هو فارسى ، ويؤثروه على كل ما هو عربى ومن ذلك دياناتهم المجوسية القديمة التى تفرقت إلى نحل مختلفة قبل ظهور الإسلام .

ما من شك فى أن كثيرا منهم قد دخلوا فى الإسلام مخلصين واعتنقوه عن إيمان ، واستطاعوا إلى حد بعيد أن يتخلوا عن دياناتهم القديمة ، ولكن مما لا شك فيه أن كثيرا منهم أيضاً أبطنوا المجوسية وأظهروا الإسلام وأسباب ذلك كثيرة لا يعنينا هنا الكلام فيها . وما من شك فى أن كثيرين دخلوا فى الإسلام مخلصين ولكنهم لم يستطيعوا التخلى عن الميراث الذى تركته فى عقولهم الديانة القديمة ، وما من شك فى أن كثيرا منهم لم يكونوا يؤمنون بالإسلام ولا بالديانة القديمة فى قلوبهم ولكنهم تمسكوا بالديانة القديمة لأنها ميراث لهم قديم يدفعهم وقوف العرب بمفاخرهم أمامهم إلى التمسك به ، فقد اعتبر العرب أنفسهم جيلا يمتاز على سائر الأجيال ، ووضعوا أنفسهم فى موضع سام ، ووضعوا كل من عداهم فى موضع وضيع ، وسموا أنفسهم العرب ، وسموا كل من عداهم العجم ، وأظهروا مفاخرهم يتحدون بها العجم جميعا ، وبرز لهم العجم فتحدوهم بمفاخرهم ، وكثر احتكاك هؤلاء بهؤلاء فى كل مكان وامتدت الملاحاة والمفاخرة حتى عاب العجم

(١) و (٢) انظر فى كل ذلك مقالنا « الزندقة فى عهد المهدى العباسى » الرسالة ٦٣٧ .

على العرب مثلا إمساك خطبائهم بالعصا ، ورد من كانوا فى صف العرب عليهم ذلك فعدوه مفخرة[١] ، وكثرت مجالس المناظرة بين العرب والموالى ولاسيما الفرس للأسباب السابقة ، ولما كان للفرس من سلطان فى أيام العباسيين وكان الفريقان يتبادلان الإحتقار والتفاخر ، وظهر ذلك على ألسنة الشعراء والعلماء ، فألف كثير من الفرس الكتب فى مثالب العرب ، وأول من شجع على ذلك الخلفاء والأمراء والعرب أنفسهم ، فنحن نعلم أن العصبيات القبلية العربية التى نجح النبى فى إسكانها قد بدأت تظهر بعده ولا سيما فى الدولة الأموية ، واستدعى هذا أن يطلب الخلفاء وأتباعهم من علماء الأنساب تأليف الكتب فى مثالب القبائل العربية التى كانت تناهضهم ، وكتب المفاخر فى مفاخر القبائل التى تناصرهم ، فلما برزت الشعوبية لمناهضة العربية وجدت فى كتب المثالب أصولا تحتذيها فى الطعن على العُرب متفرقين ومجتمعين ، وإنا نجد فى كتب التراجم أسماء كتب فى مثالب العرب عامتهم أو قبائلهم لكبراء الرواة والأدباء والعلماء .

وقد شارك كثير من الشعراء الموالى قومهم فى ذكر مثالب العرب والتندر بهم حتى فى مجالس الخلفاء والأمراء العرب ، ومن ذلك ما ذكره أبو الفرج الأصفهانى ، قال : « دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوسى ، وبشار عنده ، وعليه بزة الشعراء ، فقال الأعرابى : من الرجل ؟ فقالوا : رجل شاعر . فقال أمولى أم عربى ؟ قالوا : بل مولى . فقال الأعرابى : وما للموالى والشعر ؟ فغضب بشار ، وسكت هنيهة ، ثم قال : أتأذن لى يا أبا ثور ؟ قال : قل ما شئت يا أبا معاذ » فأنشأ يقول :

خليلى لا أنام على اقتسار ... ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عنى ... وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزاً ... ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن زاعية وراعٍ ... بنى الأحرار؟ حسبك من خسار!

(١) أنظر « كتاب العصا » من كتاب « البيان والتبيين » جـ ٣ صـ ٤ — ١٠ طبعة السندوبى ، وراجع فى الشعوبية هذا الكتاب جـ ١ صـ ٥٩ ، ٢٩٤ وجـ ٢ صـ ٤ ، ٣٨ وجـ ٣ صـ ٤ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٢ و « مجموعة رسائل البلغاء » جمعها الأستاذ محمد كرد علي ومنها « كتاب العرب » لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة صـ ٢٦٩ و ٢٩٥ وهناك أخبار منثورة فى كتاب « الأغانى » للأصفهانى « ومعجم الأدباء » لياقوت وكتب التاريخ المبسوطة .

وكنت إذا ظمئت إلى قراح ... شركت الكلب فى ولغ الإطار[١]
تريغ بخطبة كسر الموالى ... وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدّريها[٢] ... ولم تعقل بدرّاج[٣] الديار
وتتشح الشمال[٤] للابسيها ... وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا ... فليتك غائب فى حرّ نار

فقال مجزأة[٥] للأعرابى : « قبحك الله ! فأنت كسبت الشر لنفسك وأمثالك[٦] » .

ولقد حذا أبو نواس حذو بشار فى التعصب للشعوبية والطعن على العرب ، وديوانه حافل بالسخر منهم . وما افتتاحه قصائده بمدح الخمر دون مناجاة الديار إلا تعصب للشعوبية وليس تجديداً كما زعم أكثر من أرخوا عصره أو كتبوا فيه ، فأطنبوا فى الإشادة به ، وفواتح قصائده تنبىء عن سخره من مناجاة الديار أو بوجه أعم من العرب جميعا ، وإليك مثلا من عشرات الأمثلة قوله :

عاج الشقى على ربع يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد ... لادر درك ! قل لى : « من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفّهما[٧] ؟ ... ليس الأعاريب عند الله من أحد[٨] ! »

(١) الاطار حفرة حول البيت يجتمع فيها الماء عند المطر : فهو يريد أن يقول للأعرابى : إنك تشارك الكلب إذ تلغ مثله فى المياه الراكدة .

(٢) تدريها : تختلها وتخدعها لتصيدها .

(٣) يريد أنه لا يلحق القنافذ إذ يصيدها ، والدراج القنفذ .

(٤) الشمال : أكسية يتشح بها

(٥) أخطأ الأصبهانى فأسند القصة إلى مجزأة مع أن مجزأة استشهد فى فتح مدينة تستر قبل مولد بشار بنحو ستين سنة (إتمام الوفاء للخضرى صـ ١٠٠ ويوافقه الطبرى وابن خلدون وابن الأثير) وكان مجزأة رئيسا لقبيلة بكر بأمر عمر بن الخطاب فلما استشهد جعلها أبو موسى الأشعرى والى البصرة فى عهده لخالد بن المعمر السدوسى ، ثم ردها عثمان بن عفان لشقيق بن مجزأة بن ثور (البيان والتبيين جـ ٣ صـ ٧٣ ، ٧٤ طبعة السندوبى) فلا بد أن القصة لشقيق لا مجزأة .

(٦) أغانى دار الكتب جـ ٣ صـ ١٦٦ .

(٧) أى من ينتسب إليهما : وهو يقصد العروبة جميعا ، وقد عد الزمخشرى فى أساس البلاغة من المجاز « جاءوا ومن لف لفهم » واستشهد بقول الشاعر:

سيكفيكم أودا ومن لف لفها ... فوارس من جرم بن زيان كالأسد

(٨) ديوان أبى نواس صـ ١٣٨ — ١٣٩ شرح وترتيب الأستاذ محمود كامل

فقوله : « ليس الأعارب عند الله من أحد » طعن صريح في العرب جميعا : ولو مضينا في الاستشهاد بشعره على ما نقول لضاق المكان ، وما دمنا بصدد موضوع خاص فلنضرب صفحا عن الشواهد ، وحسبنا هذا الشاهد .

فهذا الطعن الصريح وغيره وليد العصبية الفارسية عند أبي نواس ومن عاصروه من الموالي ، وكان عصرهم عصر انتصار للفرس على العرب ، فتمكنوا من التصريح برأيهم حتى في بلاط الخلفاء والأمراء العرب ، ووافق ذلك ميلا في مزاج أبي نواس وأمثاله المستهترين الذي لا يحفلون بسنن العرف والأخلاق فجروا في هذا المضمار شوطا بعيدا .

وأصرح من بشار وأبي نواس قول الموبذ :

« أنا ابن المكارم من آل جم — وطالب إرث ملوك العجم
فقل لبني هاشم أجمعين : — هلموا إلى الخلع قبل الندم
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز — وأكل الضباب ورعي الغنم »

وقول أبي سعيد الرستمي :

« بهاليل غر من ذؤابة فارس — إذا انتسبوا لا من عرينة أو عكل
هم راضة الدنيا وسادة أهلها — إذا افتخروا لا راضة الشاة والإبل

ودون أولئك أبو الحسن[1] مهيار بن مرزويه الديلمي الذي أسلم على يد أستاذه الشريف الرضى فحسن إسلامه ، وظل بعد إسلامه حتى مات دون أن يظهر منه ما يدل على حنينه إلى ديانته القديمة (المجوسية) ؛ فهو — على الرغم من إسلامه ، وصلته القوية بالشريف الرضى — لم ينس أنه فارسي ، وأن قومه الفرس كان لهم مجد أعظم حتى من مجد العرب ، وأن ليس للعرب فضل إلا الدين ، وإليك أبياته المشهورة التي تغنى في زماننا :

« أعجبت بي بين نادي قومها — « أم سعد » فمضت تسأل بي
سرها ما علمت من خلقي — فأرادت علمها ما حسبي
لا تخالي نسبا يخفضني — أنا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتى — ومشوا فوق رءوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم — وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبي « كسرى » على إيوانه — أين في الناس أب مثل أبي ؟
سورة الملك القدامى وعلى — شرف الإسلام لي والأدب
قد قبست المجد من خير أب — وقبست الدين من خير نبي
وضممت الفخر من أطرافه — سودد الفرس ودين العرب »

هذه صورة موجزة للشعوبية وبعض آثارها وأسبابها ، ولقد دفعت الشعوبية العجم جميعا ولا سيما الفرس على المحافظة على كل ما تستطاع المحافظة عليه من تراث فارس حتى المجوسية ، وقد أشرنا في هذا المقال إلى الصلة بين الشعوبية والمجوسية ، وسنفصل إن شاء في المقال الآتي القول في هذه الصلة ، والقول في المذاهب المجوسية التي أظهرها الزنادقة أيام المهدي العباسي ، وبيان أصولها القديمة عند الفرس القدماء ، لنعرف صلة مذاهب الزنادقة المحمرة والمبيضة بالمجوسية القديمة التي دان بها أهل فارس قديما ، ثم تفرقت مذاهب مختلفة ، وتطورت أطوارا جديدة على يد دعاتهم زرادشترا وماني ومزدك .

محمد خليفة التونسي

(١) وقيل : أبو الحسين (وفيات الأعيان لابن خلكان) وانظر ترجمته أيضاً في « كتاب المنتظم في تواريخ الملوك والأمم » لأبي الفرج الجوزى « ومعجم الأدباء » لياقوت ، مقدمة الجزء الأول من ديوانه (طبعة دار الكتب) للمرحوم أحمد نسيم

سجون بغداد

زمن العباسيين

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ٦ —

طرائف مختارة من أدب السجون

— ١ —

كتب يحيي بن خالد البرمكي إلى الرشيد من الحبس :

« ... إلى أمير المؤمنين ، من عبد أوبقته ذنوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، وزال به الزمان، ونزل به الحدثان، وحلّ به البلاء بعد الرخاء ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهود، وفقدالهجود؛ ساعته شهر، وليلته دهر. قد عاين الموت، وشارف الفوْت : جزعاً يا أمير المؤمنين قدّمنى الله قبلك ، من موجدتك ، وأسفاً على ما حُرِمتُه من قربك . لا على شيء من المواهب ؛ لأن الأهل والمال إنما كانا لك ، وعارية فى يدىمنك . والعارية لا بد مردودة . فأما ما اقتصصته من ولدى فبذنبه ، وعاقبته بجرمه وجريرته على نفسه ؛ فإنما كان عبداً من عبيدك لا أخاف عليك الخطأ فى أمره . ولا أن تكون تجاوزت به فوق ما كان أهله ، ولا كان مع ذلك بقاؤه أحب إلى من موافقتك . فتذكر يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداك، وحجب عنى فقدك ، كبر سنى ، وضعف قوّتى ، وارحم شيبى ، وهب لى رضاك عنى ، ولتَسِمل إلى بغفران ذنبى . فمن مثلى يا أمير المؤمنين الزلل ، ومِن مثلك الإقالة . ولست أعتذر إليك إلا بما تحب الإقرار به حتى ترضى . فإذا رضيت رجوت أن يظهر لك من أمرى ، وبراءة ساحتى ، ما لا يتعاظمك معه ما مننت به من رأفتك بى وعفوك عنى ، ورحمتك لى . زاد الله عمرك يا أمير المؤمنين ، وقدّمنى للموت قبلك :

قل للخليفة ذى الصنا ئع والعطايا الفاشيه
وابن الخلائف من قريـ ش والملوك الهاديه
ملك الملوك وخير مَنْ ساس الأمور الماضيه
إن البرامكة الذين رموا لديك بداهيه
عمّتهم لك سخطة لم تُبقِ منهم باقيه
فكأنهم مما بهم ، أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهمُ خلع المذلّة باديه
متفرقين مشتتين (م) بكل أرض قاصيه
بعد الإمارة والوزا رة والأمور الساميه
ومنازلٍ كانوا بها فوق المنازل عاليه
أضحوا وجلّ مناهمُ منك الرضا والعافيه
فإذا رضيت فإن أنفسهم بحكمك ، راضيه
فاليوم قد سلبَ الزما ن كرامتى وبهائيه
واليوم قد ألقى الزما ن جرانه بفنائيه
يا من يود لى الردى يكفيك ويحك ما بيه
يكفيك ما أبصرت من ذلّى ، وذلّ مكانيه
يكفيك أنى مستباح (م) معشرى ونسائيه
ورزئت مالى كله وفدى الخليفة ماليه
إن كان لا يُرضيك إلا (م) أن أذوق حماميه
فلقد رأيتُ الموت (م) من قبل الممات علانيه
وفجعتُ أعظم فجعةٍ وفنيتُ قبل فنائيه
ولبست أثواب الذليـ ل ولم تكن بلباسِيَه
وعطبتُ فى سخط الإما (م) م على رفيع بنائيه
فانظر بعينك هل ترى إلا قصوراً خاليه
وذخائراً مقسومة (م) قُسّمْنَ قبل مماتيه
وحرائراً من بين صا رخة علىّ وباكيه
ونوادباً يندبْنَنى تحت الدجى بكنائيه
يا با علىّ البرمكىّ ! فما أجبت الداعيه
وبكاؤهن وقد سمـ تُ مقلقَلَ أحشائيه
أخليفة الله الرضا لا تشمِتَنْ أعدائيه
اذكر عهودك لى وما أعطيْتنى بوفائيه
اذكر مقاسانى الأمو ر وخدمتى وعنائيه
ارحم ، جعلتُ لك الفدا كِبرى وشدة حاليه
ارحم أخاك الفضلَ والباقين من أولادِيه

فلقد دعوك ، وقد دعو … تُكَ إن سمعتَ دُعائيه
أخليفة الرحمن إنك … لو رأيت بنــاتيَه
وبكاء فاطمة الـكئيبة … والمـدامع جاريــه
ومقالهــا بتوَجـع … وا شقوتا وشقائيــه !
مَنْ لى ، ولا مَنْ لى … وقد قصم الزمان قناتيه
وعدِمتُ صفو معيشتى … وتغـــيّرت حالاتيــه
من لى وقد غضب الزمان … على جميع رجاليــه
يا عطفــة الملك الرضــا … عودى علينــا ثانيــه[1]

وقال مسجون[2] :

إلى الله فيما نابنا نؤثر الشكوى
ففى يده كشف الضرورة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها
فلسنا بن الأحياء فيها ولا الموتى
إذا دخل السجان يوماً لحاجة … عجبنا ، وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا ، فجــلُّ حديثنا
إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فإن حسنت كان بطيئاً مجيئها
وإن قبحت لم تنتظر وأتت عجلى[3]

— ٣ —

قال على بن الجهم من قصيدة يذكر محاسن الحبس[4] :

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى … حبسىُ وأى مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يحمى غيله … كبراً ، وأوباش السباع تردد
والنار فى أحجارها مخبوءة … لا تصطلى إن لم تثرها الأزند
والبدر يدركه السرار فتنجلى … أيامه ، وكأنه متجدد ،

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقى ص ٥٧٥
(٢) نسبها المسعودى ٢ـ٢٩٥ إلى الفضل بن يحي ؛ ونسبها الجاحظ فى المحاسن والأضداد إلى غيره .
(٣) المحاسن والمساوىء ٥٨١ .
(٤) فى اللطائف والظرائف ص١١٩ : قال الثعالبي : وهذه القصيدة من أحسن ماقيل فى السجن .

غِيَرُ الليالى بادئات عوّدٌ … والمال عارية يفاد وينفد
ولكل حال معقب ولربما … أجلى لك المكروه عما تحمد
لا يؤنسنك من تفرج كربة … خطب أتاك به الزمان الأنكد
كم من عليل قد تخطاه الردى … فنجا ومات طبيبه والعوّد
صبراً فإن اليوم يتبعه غد … ويد الخليفة لا تطاولها يد
والحبس ما لم تغشه لدنية … تزرى فنعم المنزل المتورد
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه … لا يستذلك بالحجاب الأعبد
بيت يجدد للكريم كرامة … ويزارفيه، ولا يزور ويحمد[1]

— ٤ —

فعارضه عاصم بن محمد الكاتب لما حبس وقال :

قالوا حبست فقلت خطب أنكد … أنحى على به الزمان المرصد
لو كنت حراً كان سربى مطلقاً … ما كنت أؤخذ عنوة وأقيد
أو كنت كالسيف المهند لم أكن … وقت الشديدة والكريهة أغمد
أو كنت كالليث الهصور لمارعت … فىَّ الذئاب وجذونى تتوقد
من قال إن الحبس بيت كرامة … فمكابر فى قوله متجلد
ما الحبس إلا بيت كل مهانة … ومذلة ومكاره لا تنفد
إن زارنى فيه العدو فشامت … يبدى التوجع تارة ويفند
أو زارنى فيه الصديق فموجع … يذرى الدموع بزفرة تتردد
يكفيك أن الحبس بيت لا ترى … أحداً عليه من الخلائق يحسد
عشنا بخير برهة فكبابنا … ريب الزمان وصرفه المتردد
فى مطبق فيه النهار مشاكل … لليل ، والظلمات فيه سرمد
تمضى الليالى لا أذوق لرقده … طعماً، فكيف حياة من لا يرقد
فتقول لى عينى إلى كم أسهرت … ويقول لى قلبى إلى كم أكمد
وغذاى بعد الصوم ماء مفرد … كم عيش من يغذوه ماء مفرد
وإذا نهضتِ إلى الصلاة تهجداً … جذبت قيودى ركبتى فأسجد
فإلى متى هذا الشقاء مؤكد … وإلى متى هذا البلاء مجدد[2]

(يتبع) صلاح الدين المنجد

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي ٥٧٨ ، المحاسن الأضداد للجاحظ ٢٨ ، مروج الذهب ٢ـ٣٨٧ .
(٢) المحاسن والمساوىء ٥٨٠ ، المحاسن والأضداد ٢٩ .

أشـــواق ...

للأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالى

ارجعى قبل أن تشيب الأمانى كرجوع الربيع فى الأغصان
صوّح الزهر ، فامنحيه رُواء وغفا الطير ، فانفحيه الأغانى
أنا أحيا على الأمانى ، ولـكن أىُّ معنًى لها سوى الحرمان
طال فى ظلّها خداعى ، فحسبى ذلك العمر فى خداع الأمانى
نفحة من شذاك .. تعبق نفسى وسنًى منك .. تُبصر العينان
وهدًى منك .. يستفيق ضلالى وادّكاراً لذلك النسيان
شاقنى وجهك العجيب وما فيه (م) من الفيْض عبقرىّ المعانى
أنا من هزّةُ الحنينُ لِلُقْيا يتحدّى بها غُرور الزمان
ألحنينُ الذى يزلزل قلبى هو منْ ذلك الهوى والهوان
أىُّ لمحٍ ذاك الذى يتجلّى فى مُحيّاك سارياً بكيانى ؟ !
أى ومضٍ ترفُّ عيناك فيه فيلجّ الفؤادُ فى الخفقان ! ؟
أطفئى يا حبيبتى لهب الروح (م) وروّى لواعجَ الظمآن
فيك من سَطوة الجلال أفانينُ (م) أُعانى من أسرها ما أُعانى
أُسكبى النور فى متاهات نفسى وأَجيبى هواتف الوجدان
أنا فى رحلتى إلى الغـد أسعى ويكاد الغـــد البعيد يرانى
قرّبيه إلىّ ... رُبّ زمان قد تأبّى فعاد طَوْعَ بنان
منك شكى ، وأنت إيمان قلبى ليس للشك روعةُ الإيمـان
إبعثى فى غدى مسرات أمسى وأعيدى شباب هذا المكان
وأجمعى السامر الذى كان يوماً بين تلك الظلال والجدران
طاب فيه اللقاء فهو صفاء ورخاء لخاطرى الولهان
كنتِ أنسَ الحياة فيه فلما غبْتِ شاهت مجالياً ومجانى
آن أن تُمْلأَ الكؤوس و نُسقى ضجت الخمرُ بين تلك الدّنان
قلّ منها النصيب إن لم تكونى أنت راح الكؤوس والنشوان
فرحةٌ فى غدى تلوح لعينى تلك زاد للمُجهَد الحيران
هو ذاك الغدُ البعيدُ المرجّى رُبّ ناءٍ محجّبٍ وهو دانِ .

أحمد عبد المجيد الغزالى

الاعرابية الكادحة

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

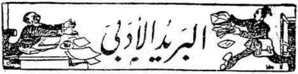
[قرأت لأعرابية قديمة قولها :

أظل أرعي وأبيت أطحن والموت من بعض الحياة أهون

فقرأت في إيجازه البليغ كتاب عيشها المفعم بالكدح والشقاء ، وألفيت فى وصفها لحياتها وصفاً صادقاً لحياة أعرابية اليوم هزنى هزاً فقلت :]

(أظلُّ أرعى وأبيت أطحن) ليلىَ كَدْحٌ ونهارى شَزَنٌ(١)
يَطْوى حياتى بالشقاء الزمن (والموت من بعض الحياة أهون)
يا ليت شعرى والورى تمتحن تسوؤها الأيام ثم تحسن
أكلَّ دهرى أرتعى وأطحن ؟ يُسْلِمُنى ذاك لذا ويَقْرِنُ
ما طلعت شمس ووافى مُدجن أما بدهرى لىَ يومٌ أيمن ؟
لا أضطحى فيه ولا أمتهنُ ؟ أذوق فيه العيش وهو ليّن ؟
أَقيلُ فى هجيره وأسكن ! ويحتوينى الليل وهو محسن ؟
فيلقىَ الراحة جسمى الضمن ؟ وتطعم السهاد منى الأجفن ؟
لُماظَةً تُريحنى يا ومن ولَفْتَةً تُسعدنى يا زمَن
لم أدر ما العيش ولا ما السكن لـكنه شىء رَوَتْهُ الألسن
جَهِلتهُ وإن وَعَتْهُ الأذُنُ هل لى أن أدرى ما لا أزكن ؟
سلنى عن البؤس ، فعندى العلن من أمره والباطنُ المكتمنُ
إنّ فؤادى للهموم موطنُ فَهْوَ بها مُحَنَّطٌ مكفَّنُ
ينحت جنبى الضحى والموْهن كأن صرف الدهر بى مرتهن
كم أكلتْ قلبى الرحى إذ أطحن و بَتّ تأويبىَ هذا الشزَن !(٢)
عشيرى البَهم ودارى الدّمن وزادىَ الجشب وِوردى الآجن
ثوبىَ أسمالٌ وجسمى دَرِنُ أرْحَضُهُ بعَرَقى فيأسَنُ ،
وأرفأ الجيب فيهرا(٣) الرُّدُنُ لـكنِ عرضى وافرٌ لا يمهنُ

(١) شدة الاعياء من الحفا .
(٢) بت : قطع . التأويب : سير النهار أجمع
(٣) بتسهيل الهمزة .



فلسطين والنشاشيبي :

أرادت (السياسة) أن تسلها وأن تسميها (فلسطين) فسلتها وسمتها ، وقالت : هذى (تخومها)[1] وماشاها القوم فى التسمية ، وفى غير التسمية ، وقالوا : « قضاء من الله العزيز أراده » وفى الضمير أن هذه الدعوة فلسطين سوف تمسى مملكة ، وسوف يؤمرون أو يزرون يعودون (يصيرون) أوزارا[2]. وقال فريق : هل خلصنا من (اسطنبول) حتى نروح لـ (دمشق) تبعا . وأبى شخص أن يزل وأن يضل فيدين بما دان به غيره ، وصاح منذ أول يوم : يا قوم ، إن هى إلا أسماء سموها ما أنزل الله والعربية بها من سلطان ، وإنّ وراء الأكمة ما وراءها ، فاحذروا ثم احذروا ، لا تهتلكوا ، لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

أمرتهمُ أمرى بمنعرَج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد[3]

(١) فى الحديث الشريف : « ملعون من غير تخوم الأرض » قالت (النهاية) : أي معالمها وحدودها واحدها تخم ، ويروى تخوم الأرض بفتح التاء على الأفراد ، وجمعه تخم بضم التاء والخاء .

(٢) أوزار جمع وزير ، ووزر فلان للأمير يزر له وزارة .

(٣) أمرتهم أمرى : أى ماينبغى لى أن أقوله ، والبيت والذي يجىء بعده لدريد بن الصمة . و« قضاء من الله الخ » صدر بيت للمتني ، والعجز : « ألا ربما كانت إرادته شراً » !

أبيضُ لم تَلُثْ نقـاه الظِّنَنُ[1]

حَسْبُ الحصان[2] أن تطيب الألسن

بها فلا تزنُّها[3] أو تطعن ! تجوع بنت يعرب وتغبن

وهى على لؤم الزمان تحصن ! رجنت يا ليل فلست تظعن[4]

قل لى متى أنت بصبح مؤذن ؟ أأنت دهر فى الظلام ممعن ؟

أم صبحك المشرقُ يومَ أُدفَنُ ؟!

محمد بهجة الأثري

(١) لاث الثوب بالطين : لطخه به . نقاه : نقاءه ، نظافته ، خلوصه . الظنن : التهم . (٢) المرأة العفيفة .

(٣) فلا تتهمها . (٤) رجن بالمكان : أقام . ظعن : سار .

وذلك الشخص هو (محمد إسعاف النشاشيبى) وهو على ما عاهد الله عليه ، على ما واثق العربية عليه لم يزل ، ولم يتحول ، ولم يقل :

وهل أنا إلا من غزية ، إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

ولن يتبدل ، ولن يتحول

يقول العلامة الأستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب فى كتاب (رحلات) ص ٤ :

« ... وبينما نمنى أنفسنا بالمبادرة إلى الفندق للاستراحة إذا بوفد من كرام إخواننا المقدسيين ينتظرنا . أبصرنا فى مقدمة المستقبلين ذلك المحيا المحبوب المعروف أديب العرب إسعاف النشاشيبى. سارع الإخوان إلينا مسلمين وأخبرنا أن حفلا حاشداً ينتظرنا فى (روضة المعارف) فسارعنا إليها . نضر الله روضة المعارف وبارك فى أهلها الأمجاد ؛ لقد لقينا من حفاوتهم وإيناسهم ما هو جدير بنفوسهم الكريمة ... دخلنا الروضة والموسيقى تعزف بألحان مصرية ، ولقينا هناك جماعة من العلماء الأجلاء منهم الأستاذ الحسينى المفتى ورئيس المجلس الإسلامى الأعلى ، والشيخ الخالدى ، ولما اطمأن بنا المجلس خطب مدير الكلية مرحباً معرباً عما يكنه الشاميون (ولا أقول الفلسطينيون إرضاء للحق وللأستاذ النشاشيبى الذى لا يعرف إلا اسماً واحداً هو الشام لما يسمونه فلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان والعلويين) لإخوانهم المصريين من الحب والولاء والإكبار والإعجاب[1] ... » .

« السهمى »

كيف نحتفظ بأرض فلسطين لأهلها :

ذكر الأستاذ الكبير ابرهيم عبد القادر المازنى فى مجلة الرسالة الغراء أنه يجب أن تقاطع التجارة الصهيونية حتى تكف عن أطماعها فى فلسطين ، وإنى أضيف إلى ذلك وسيلة أخرى لها شأنها فى قطع أطماع الصهيونية ، وهى أن يقوم كل فرد من أهل فلسطين بوقف ما يملك من عقار وقفاً أهلياً أو خيرياً ، حتى لا يصح فيه بعد ذلك بيع أو شراء ، وتقوم دول الجامعة العربية بدفع نفقات

(١) سنة ١٣٤٨ هـ (ديسمبر ١٩٣٠)

تسجيل تلك الأوقاف لكل فرد ، وبذلك تنقطع أطماع الصهيونيين في ملك تلك الأراضي ، فلا يهاجرون إلى فلسطين لتملكها ، ويستقر أهل فلسطين في بلادهم فلا يبيعون ما يملكون فيها ويهاجرون عنها ، وإذا كان في الوقف الأهلي بعض مضار ، فإنها لا تذكر بجانب حفظ أرض فلسطين لأهلها ، وقطع أطماع الصهيونيين فيها .

عبد المتعال الصعيدي

على هامش الأدب الحجازي :

فيما كتبه الأخ الأستاذ ابراهيم فلالي ، وفيما سطره الأستاذ الفاضل أحمد أبو بكر ابراهيم من حديث عن « الحياة الأدبية في الحجاز » ما يعطى صورة مصغرة عامة عن الأدب الحجازي ، لكن لا يجوز لنا بحال أن نتخذها مقياساً صحيحاً لما هو عليه الأدب الحجازي اليوم

فالأول ، وهو حجازي ، قد سرد علينا قصائد ومقطوعات من هذا الشعر في عجلة وبلا تحليل فني يرتكز إليه القارئ المدقق ، وقد اغتفرنا له ذلك حملا على أنه في مجال عرض لقضية الأدب الحجازي يستدعيه السرعة والارتجال ، وهو اغتفار — كما ترى — لغير النقد والمناقشة ، إذ كان الأمثل به أن يقتصر على بعض النماذج التي سردها مع تبيين القيمة الفنية لها

أما الآخر ، وهو مصري كريم ، فقد أبت عليه أريحيته المشكورة إلا أن يعرض للأدب الحجازي منذ أدواره الأولى في تعمق وفلسفة ، حتى الدور الذي يتمثل جله في مجموعة « وحي الصحراء » ، فساق حديثاً عذباً طلياً ، إلا أنه انتهى إلى قوله : « ولا ضير علينا بعد الذي فصلناه في باب الشعر أن نقرر أن الشعر الحجازي قد تقدم في هذه الفترة القصيرة في أغراضه ومعانيه ، واستطاع أن ينأى بالتلاعب بالألفاظ وألوان الزينة ، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نقول : إن الحجاز مهد الأدب شعره ونثره لا يزال يتطلب من شعرائه المزيد ، وبخاصة فيما يختص بقوة الأساليب ورصانتها ، فإن الكثير منهم مع إجادته لا يهتم أحياناً بجزالة الأسلوب ورصفه ، شأنه في ذلك شأن شعراء المهجر ... »

هنا تختلف نظرتنا ، ولسنا متشيعين — عن نظرة الأستاذ الكريم ، ولكن للأستاذ العذر ، فلو قدر له الآن — لا منذ صدور وحي الصحراء — أن يدرس شاعراً كالفقي أو قنديل أو شحاتة أو عواد مثلا ، أو سوى هؤلاء من شعراء الشباب في الحجاز — متوفراً على استيعاب أكثر شعر الشاعر الحديث ، متذوقاً أسلوبه الرائع الجديد للمس ما يطرب له ويعجب من أصالة الأفكار ونضجها والتماعها ، وروعة السبك وزخور الأسلوب بشتى الصور الشائقة الفاتنة ، ولكن أنى يتسنى ذلك للأستاذ الفاضل ، ونحن لم نر بعد شاعراً حجازياً واحداً قد أبرز ديوانه للقراء ، وما أظن ذلك بالعسير لو تضافر أدباء الحجاز على خدمتهم ، باذلين الجهد في تذليل كل مشقة وعناء ليضموا إلى العربية من كنوز قرائحهم ما تظفر به وتفخر

أما النثر الحجازي ، فقد قطع مرحلة بعيدة وبلغ مستوى عصرياً عالياً ، وليس ببعيد إن شاء الله ذلك اليوم الذي تنتشر فيه صحف الحجاز الأدبية وتتألق فيه كتبه الحديثة ومنتجاته ، وحينئذ سيتذوق قراء العربية في الأقطار الشقيقة ، ولا فخر ، من أدب إخوانهم هنا شهداً سائغاً مصفى ، يلذ لهم تناوله في فرحة وإكبار

وبعد ، فلحضرة الأستاذ الفضال أحمد أبو بكر ابراهيم ، ولرصفائه من كرماء مصر الحبيبة ، ممن يعنون بأدب هاته البلاد ، مزيد التقدير والشكر والإعجاب ...

حسن عبد الله القرشي

عبد الله بن أبي بكر وهيكل باشا :

ذكر الدكتور هيكل باشا في كتابه « الصديق أبو بكر » (الطبعة الثانية صفحة ٣٨٤) في باب مرض أبي بكر ووفاته : « وضع الجثمان في المسجد بين القبر والمنبر ، وتولى عمر صلاة الجنازة فكبر أربعاً ، ثم نقل الجثمان إلى القبر ، ودخل معه عمر وطلحة ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأراد عبد الله بن أبي بكر أن يدخل ، فقال له عمر : كفيت » . ومن هذا يفهم أن عبد الله بن أبي بكر قد حضر وفاة أبيه ودفنه ، وهذا لم يحدث ، والذي منع حدوثه أن عبد الله كان قد توفي قبل ذلك بعامين ، وقد ذكرت جميع المظان موت عبدالله في خلافة أبيه ، وهاك ما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب : « ومات ، أي عبدالله بن أبي بكر ، في أول خلافة أبيه ، وكان قد ابتاع الحلة التي أرادوا دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بتسعة دنانير ليكفن فيها ، فلما حضرته الوفاة قال : لا تكفنوني فيها ، فلو كان فيها خير كفن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودفن بعد الظهر ، وصلى عليه أبوه ، ونزل في قبره عمر وطلحة وعبد الرحمن أخوه » .

وقد ذكر الدكتور هيكل باشا نصاً في الصفحة السابقة للصفحة التي أورد فيها النص الذي نحن بصدده ، لو أنه استقرأه ومحصه قبل أن يثبته لما وقع في هذا الخطأ ، فقد ذكر حديثاً

على لسان الصديق إلى عائشة أم المؤمنين جاء فيه : « يا بنية ، إن أحب الناس غنىً إلىَّ بعدى أنت ، وإن أعز الناس فقراً بعدى أنت ، وإن كنت نحلتك أرضى التى تعلمين ، وأنا أحب أن تردّيها علىّ فيكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله ، فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختاك ، ولم يكن لعائشة غير أخت واحدة فسألت أباها فى ذلك فقال : « ذو بطن ابنة خارجة ، فإنى أظنها جارية » . وهذا الذى قاله الصديق يدل على أن لعائشة أخوين اثنين لا ثالث لهما هما : عبد الرحمن بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى بكر ، الذى ولد فى حجة الوداع ، أما التى كانت حبيبة بنت خارجة بها حامل ، فهى أم كلثوم ، وقد ولدت بعد موت الصديق ، فلو كان عبد الله حياً لما قال أبو بكر : « ... وهما أخواك وأختاك »

وأظن أن الذى أوقع الدكتور هيكل باشا فى هذا الخطأ هو أنه وجد النص الآتى فى كتاب الطبرى : « ... أن أبا بكر حمل على السرير الذى حمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل قبره عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وأراد عبدالله أن يدخل فقال له عمر : كفيت » .

هذا ما أورده الطبرى ، وقد أضاف الدكتور هيكل من عنده ابن أبى بكر بعد عبد الله ، فجاء هذا الخطأ ، وقد يكون عبد الله هذا الذى ذكره الطبرى هو عبد الله بن الزبير حفيد أبى بكر ، وهذا يجوز إذا أخذنا بالرأى الذى يقول : إن واقعة اليرموك قد حدثت فى أيام عمر ، لا فى أيام أبى بكر ، وعلى ذلك يصح أن يكون عبد الله بن الزبير فى المدينة لم يخرج مع أبيه بعد إلى اليرموك ليشاهد قتال الروم عن كثب ، وإلا فإن عبد الله الذى ذكره الطبرى هو أى عبد من عبيد الله خلاف ابن أبى بكر الذى كان قد قبر قبل ذلك بعامين

عبد الحميد جودة السحار

جائزة فاروق الأول للصحافة :

كان الأستاذ ادجارجلاد بك صاحب ومدير سياسة (الجورنال ديجيبت) قد تبرع بستة آلاف جنيه ترصد فائدتها لإنشاء جائزة سنوية باسم (جائزة فاروق الأول للصحافة) ، وتمنح للصحفيين فى البلاد العربية الذين لا تزيد سنهم على ثلاثين سنة والذين يتفوقون فى مهنتهم

وقد تقرر توزيع ريع هذا المبلغ فى هذه السنة وقدره ثلاثمائة جنيه على ثلاث جوائز على الوجه الآتى :

١٠٠ جنيه للصحفى العربى الذى يكون قد كتب أحسن مقالة فى موضوع وطنى .

١٠٠ جنيه للصحفى الذى يكون قد قام بأوفى تحقيق صحفى فى موضوع عام

١٠٠ جنيه للصحفى العربى الذى يكون قد كتب أحسن مقالة بلغة أجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) فى موضوع شرقى .

ويجب أن تكون هذه المقالة قد كتبت فى المدة من ١١ فبراير سنة ١٩٤٥ إلى أول يناير سنة ١٩٤٦

وترسل منها ثلاث نسخ إلى إدارة (الجورنال ديجيبت) بالقاهرة وستؤلف لجنة من كبار الصحفيين للحكم فى هذه المباراة ، وتعلن النتيجة فى ١١ فبراير سنة ١٩٤٦ يوم عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر . وحكم اللجنة غير قابل للاعتراض

مجلة « الكتاب » :

صدرت هذه المجلة الشهرية عن دار المعارف بالقاهرة يتولى رياسة تحريرها الأستاذ عادل الغضبان ، ويعاونه فى ذلك بعض الأقلام البارعة فى الأدب والفن . وهذه المجلة مثل عال للصحافة الشهرية فى جمال التبويب وحسن الترتيب وطرافة المادة وأناقة الطبع . فنرحب بالزميلة الجديدة ونرجو لها التوفيق فى خدمة العربية والعروبة .

١ — تصويب :

وقع فى مقالة (دفاع عن الأدب) تطبيعات هذا تصويبها :

صفحة	عمود	سطر	التطبيع	الصواب
١١١١	٢	٢٠	ويعرفوا	ويعرضوا
١١١٢	١	٣٧	من بمجالستهم	من مجالستهم (أو) بمجالستهم

٢ — الجيل :

جاء فى إحدى حواشى مقالة الزندقة (العدد ٦٤١) أن الجيل الأمة ، وليس معناه العصر . وإطلاق النفى يوهم أن الجيل بمعنى القرن لا أصل لها ، مع أنها قد جاءت فى التاج فى مادة (جيل) ومرت على ألسنة بعض الفصحاء ، ولها مواضع لا يصلح لها غيرها .

على الطنطاوى



من الأدب القصصي الروسي :

عمل شاق ...

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

للأستاذ مصطفى جميل مرسي

كانت ليلة من ليالي شهر مارس ، والسحب مدجنة مطلخمة ، وقد اسبطر الضباب فطوى الأرض والسماء في مطارفه . . حتى لا يكلف المرء نفسه الخطو خيفة العثر .. وهب الحارس فجأة وقد طرق أذنيه لغط وهسيس لبعض من الناس يمضي في مطارب المقبرة . وصاح في هيمة وتحوب « من ثمت يسرى ؟ » . ولكن دون مجيب . . فراح يرجّع صيحته وقد توجس همساً وهجساً « من ثمت يسرى ؟! » فأجابه صوت مختلج لرجل هرم . « أنا ذا .. أيها الرفيق . »

— ولكن من أنت ؟!

— أنا رجل جوّال .

فصاح الحارس في صوت حاول أن يستر به رنة الفزع التي سرت إليه :

— أي شيطان رمى بك إلى هنا ؟! أتجوّل قدميك في المقبرة ليلا ؟ أيها الشرير الخبيث ! .

— وَيْ ! أتقول إن هذه مقبرة ؟!

— وما في ذاك ؟! إنها مقبرة .. ألا تلمح ذلك ؟.

فتنهد صوت الرجل الهرم قائلا : « آه .. يا للسماء . ما أقدر على إبصار شيء أيها الرفيق .. إن الظلمة لحالكة .. الظلمة .. فما يستطيع الإنسان أن يرى يده وهي أمام وجهه !

— ولكن من أنت ؟!

— أما قلت لك .. زائر .. أيها الصديق ، رجل جوّال . .

فنبس الحارس في يقين : « إلى الشيطان . . يا لكم من معربدين أيها الجوالون ، كل منكم يظل يجرع الخمر ، ويأتي إلى هنا يقلق راحتنا وبسبب متاعبنا ليلا .. ولكن .. لقد سمعت أصواتاً تهمس معك فأين أصحابها ؟! .

— إني بمفردي ياصديقي .. إني وحيد .. آه يا إلهي

فدنا الحارس من العجوز ووقف إزاءه وسأله :

— كيف حضرت إلى هنا ؟ !

— لقد ضللت سبيلي يا سيدي بينا كنت أروم طاحونة « ميتريافسكي » ...

— وي ... أهذا طريق طاحونة « ميتريافسكي » ؟ أيها الشرير ؟ كان ينبغي أن تسرى إلى يسارك ثم تدوّم سيرك على استقامة ... يخيل إليّ أنك تناولت بعضاً من أقداح الخمر ، فتنكبت سبيلك !

— نعم ... لقد أتت يداي هذه الخطيئة ، فما ثمت سبب للانكار . ولن أعود فأركب هذا المتن الخاطئ ثانية ... بالله أين الطريق الذي علىّ أن أسلكه ؟

— امض أمامك في هذه المطربة حتى تصل إلى باب المقبرة ، فافتحه ، وانطلق إلى حال سبيلك ... حاذر أن تعثر بالخندق فتردى فيه ... وستلاقي الطريق حيث يمكنك أن تصل إلى الطاحونة إن سلكته .

— أسأل الله أن يسبغ عليك وافر الصحة والخير ... أيها الرفيق ، ويطهرك من ذنوبك برحمته وغفرانه ... ألا يمكنك أن تصحبني حتى الباب ... فيضاعف ثوابك ، فما أكاد أتمس طريقي في تلك العتمة ...

— كأني بك ترى عندي الوقت الذي أضيعه عبثاً في السير معك ... امض وحدك .

— كن رحيما يرحمك الله ... فسأصلي من أجلك . إني لا أكاد أرى طريقي فالظلمة حالكة ... بالله أرني الطريق .

— أيدور بخلدك أن وقتي متسع لصحبتك أيها الشرير الكهل!

— نشدتك الله ... قدني إلى الباب ... لا أقدر على إبصار شيء ، كما أنني أخشى هذه المقبرة وما يجول فيها من أرواح

وأشباح ... هيا معى يا سيدى ... بالله رافقنى ...

— ليس سبيل إلى الخلاص منك ومن ثرثرتك ، هيا إذاً معى أيها العجوز ...

ومضى الرجلان متلاصقين فى صمت رهيب ... وهبت الريح صرصراً تصطك منها الأسنان ، والأشجار ضاربة فى جو السماء تصفرفى رهبة كأنها صراخ الجن ... ويساقط منها الطل والندى ... وقد تناثرت فى ساح المقبرة المناقع الضحلة ...

وبغتة قال الحارس بعد أن طال أمد الصمت بينهما :

— ثمت شىء يثير حيرتى وتساؤلى ! كيف تسنى لك أن تدلف إلى هنا مع أن الباب مقفل ؟! أتسلقت الحائط ! ؟ ما أظن ذلك فأنت هرم ، فأنت آخر من يأتى هذا العمل ! .

— لست أدرى ! أيها الرفيق ... لست أدرى كيف أتيت إلى هنا ... لعمرى إنها مشكلة ... رحماك يا رب ... لا بد أن الشيطان مس عقلى ، ألست حارس المقبرة أيها الرفيق ؟

— بلى ...

— أنت وحدك تقوم بحراسة كل هذه المقبرة ؟!

وارتفعت حينئذ ريح عاصف كادت أن تنتزعهما من مكانهما فلما هدأت حدتها عاود الحارس حديثه مجيباً :

— إنا هنا ثلاثة رجال : واحد مضطجع فى فراشه محموم ، والآخر مستغرق فى نومه ، ونحن الإثنين نتبادل الحراسة ...

— حسن ... آه ، يالها من ريح عاصف يكاد أن يسمع صفيرها الأموات فى قبورهم ... إنها تزأر كالوحوش الكاسرة ... آه ... آه ...

— ولكن من أين أتيت إلى هنا ؟

— كنت عند صديق فى اقليم « فولجدا » على مبعدة من هنا ... إنى أتجول من مكان إلى آخر حيث أصلى وأعظ ... اغفر لى يا إلهى ...

* * *

توقف الحارس هنيهة ليشعل غليونه ، وقام الرجل العجوز بينه وبين الريح ... وأبرق عود الثقاب على المطربة التى يسلكانها واستقر شعاعه على بعض أحجار القبر التى إلى جانبهما ؛ فأشعل العود الثانى فتألق ضوؤه ثم خبا على حين فجأة ... أما العود الثالث فألق بشعاعه إلى اليمين وإلى الشمال ، فتمكن من إشعال غليونه

قال الرجل الغريب :

— إن الراحلين راقدون ... الراحلين الأعزاء ... إنهم يرقدون سواسية لافرق بين غنى وفقير ، حكيم وأحمق ، قوى وضعيف ، إنهم على حال واحد الآن ... وكذلك سيمكثون إلى أن ينفخ فى الصور وتبعث الأموات من القبور ... إن هذه الحياة الدنيا لفانية مضمحلة أما الحياة الأخرى فخالدة سرمدية . فقال الحارس فى جلال :

— نعم ... إننا لنسير فى هذا المكان الآن ، وبعد حقبة تطوينا هذه الأرض فنصبح نسياً منسياً ...

— لامجال للريب فى ذلك ... كلنا جميعاً ... جميعاً إلى هذا المصير سائرون . وليس ثمت من يخلد على أديم هذه الأرض ... أوآه ... إن أفعالنا لآثمة ، وأفكارنا تطمح إلى آمال كالسراب . إن الخطيئة لتسيطر علينا وليس ثمت خلاص من قضاء الله سواء فى الدنيا أو فى الآخرة . إنى لغارق فى خطيئاتى كالحشرة تسوق جوف الأرض ...

— أجل ... ورب منيتك كانت قاب قوسين منك !

— إنك لعلى صواب وحق ، أيها الصديق ...

فقال الحارس وهما يحثان الخطا نحو الباب .

— إن الموت لأدنى إليكم معشر الجوالين منا نحن من نستقر فى الأرض على الدوام ! .

— إن هناك أنواعاً متباينة من الجوالين ياسيدى . فمنهم من أنزل الله السكينة على قلبه ، فراح يصلى ويعبد ربه . ومنهم من أصابه الفجور فراح يعربد ويأتى المنكرات وليس له رادع يردعه عن أفعاله . إن هؤلاء يجولون فى المقابر لتتصل أنفسهم بالشياطين .

وهناك من فى مقدورهم أن يهووا بفأسهم على هامة رأسك فتخر وقد بت على شفا الموت ...

— هه ... عم تتحدث أيها العجوز ؟ !

— آه ... لا شىء ... يخيل إلى أن هذا هو الباب ... نعم إنه هو . أرجو منك فتحه ...

فتلمس الحارس طريقه وفتح الباب ، وقاد الرجل إلى الخارج من منكبه وقال :

— هذا هو منتهى المقبرة ... وعليك بالإنطلاق عابراً الحقول حتى تدرك الطريق ، وحاذر الخندق أن تتردى فيه . وإذا ما لحقت بالطريق العام ، فانثن إلى يمناك وواصل سيرك حتى تصل إلى الطاحونة التى ترومها ...

فزفر العجوز بعد فترة صمت :

— هيه ... ولكن ما الذى يدفع بى إلى الذهاب إلى طاحونة « ميتريافسكى » إنى أفضل البقاء هنا على المضى إلى هناك ياسيدى ...

— وما الذى ترجوه من اللبث هنا ؟ !

— ستجد منى من يؤنس وحدتك ، ويفرج عنك كربك .

— الملك رجل لطيف المعشر ، حلو النكتة ؟ !

— بلاشك ياسيدى ... فستظل تذكرنى ... تذكر ذلك الجوال على الدوام ...

— ولم تظل ذكرى إنسان مثلك ببالى على الدوام ؟ !

قال العجوز فى صوت أصحل ساخر :

— هه ... اسمع ... إنك تمعن فى الجفاء ... وأنا أتبسط فى الحديث ... فما أنا بجوال كما أنبأتك !

— إذن من أنت ؟ !

— رجل ميت ! لقد خرجت الآن من لحدى ... ألا تذكر « جبرياف » القفال الذى شنق نفسه فى عيد « الكرنفال » ... حسن . إنه أنا « جبرياف » .

— بالله خبرنا بشىء غير هذا ...

لم يصدق الحارس لفظة مما قاله العجوز ، ولكن سرت قشعريرة الهلع فى جسده فراح ينتفض فرقاً ... ويسرع بالنأى عن الباب ، فقبض الرجل الغريب على كتفه وهتف قائلا :

— قف ... أتمضى وتدعنى وحدى أعانى مرارة الوحدة ...

فصاح الحارس وهو يحاول نزع ذراعه من براثن ذلك العجوز :

— دعنى أذهب ! دعنى أمض بسلام !

— قف ... إنى آمرك بالوقوف ، وستقف حتماً ... لاتناضل أيها الكلب الرعديد ... إن كنت تبغى الحياة . فقف حتى آذن لك ؛ هذا لأنى لا أود أن أسفك دماً حقيراً كدمك أيها الخنزير الجبان ... قف مكانك ...

وتهاوى الحارس ، وقد سرت عنه شجاعته فأغمض جفنيه وراح يرتعد ويرجف وقد طارت نفسه شعاعاً ... إنه يستطيع الصياح والإستغاثة ولكن عبثاً يحاول ... فليس من حى تصل إلى أذنه صيحاته ...

قام الرجل الغريب إلى جانبه وساعده فى ثبات وقسوة ... وتقضت ثلاث دقائق والكون غارق فى صمت رهيب ... فعاد الغريب يقول :

— واحد مريض محموم ، والثانى غارق فى النوم ، والثالث يلقى الجوالين بجفاء وبرود ... ألا بالله خبرنى يا سيدى الحارس كيف تستحقون مرتباتكم ، إنكم كاللصوص ولكن فى الخفاء . قف مكانك ...

* * *

انقضت خمس دقائق ثم تلتها عشر والصمت لم ينفك مخيما على المقبرة ... وعلى حين غرة ... قطع هذا الصمت صوت صفير سرى فى جنح الليل ... فقال الغريب إثر ذلك وهو يطلق ذراع الحارس : « حسن ... الآن ... امض ... امض ، واذكر أن الله رقيب أعمالك الشائنة ... »

ثم أطلق صفيراً — يشابه الذى سرى مذ هنيهة — وانطلق خارجاً من باب المقبرة ... وسمعه الحارس وهو يجتاز الخندق قفزاً ووقف الحارس هنيهة جامداً لا يتحرك ... يرتعد فرقاً ... كأن الغريب ما زال ماثلا أمامه .

ولما انقلب عقبه فى المطربة طرقت أذنه أصوات لأقدام تتسارع فى سيرها ، وسؤال يجرى على لسان يقول : « أأنت "تيموفى" ؟ أين « ميتكا » ؟ » وابتعدت عنه الأصوات فراح يجد فى سيره حتى لمح شعاعاً يخفق فى الظلام ... فلما أمعن فى الدنو ، وضح له الشعاع فراح يردد :

— كأن النور يشع من الكنيسة ! . من أين أتى هـذا الشعاع يا إلهى ... فرج كربتى . .

دار الحارس حول الكنيسة حتى وقف أمام نافذة محطمة فراح يحملق نحو المذبح ... فى هلع وفزع .. وكانت هناك شمعة خلفها وراءهم اللصوص تخفق فى رهبة ، وتلقى الظلال الدامسة فى الأرجاء ... وقلب الحارس طرفه فرأى الخزانة مقلوبة محطمة وقد فتحت على مصراعيها ، واختفى ما كان بها من كنوز وأموال ...

وكذلك ذهبت القرابين وغيرها . . وأدرك الحارس سر ذلك الرجل الغريب الذى راح يداوره ويبعده عن الكنيسة حتى يهيىء الفرصة لزملائه اللصوص ...

ومضت برهة ، وعادت الريح تعصف وتصفر فى جنون وكأنها تسخر من ذلك الحارس المسكين ؟

مصطفى جميل مرسى